جمع القرآن الكريم

بين الحقائق الثابتة والشبهات الهابطة

تأليف

د/ جمال مصطفى

جمع القرآن الكريم

بين الحقائق الثابتة والشبهات الهابطة

تأليف

الأستاذ الدكتور

جمال مصطفى عبدالحميد عبدالوهاب النجار

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

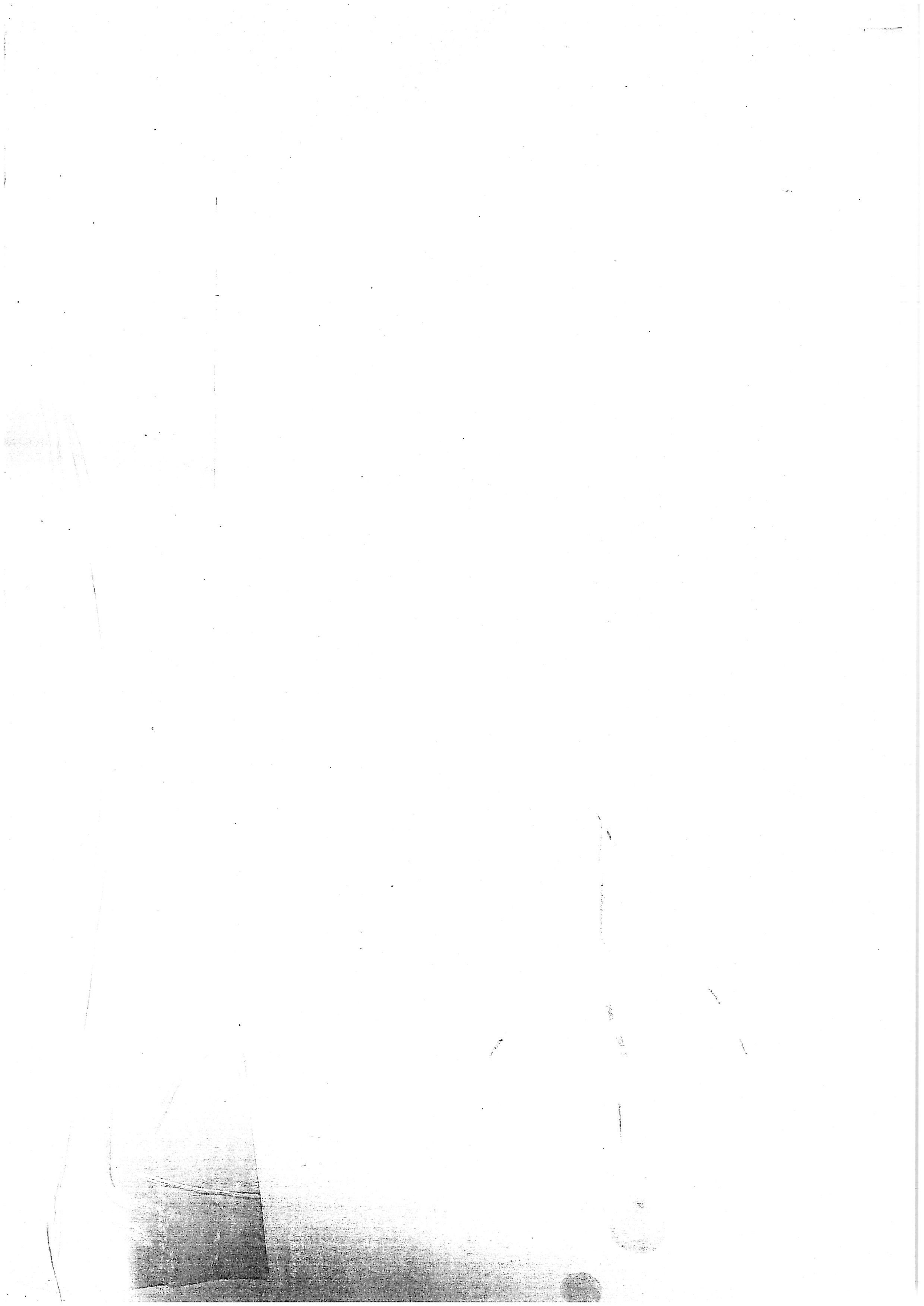
في كلية أصول الدين . جامعة الأزهر بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الحسين الإسلامية للطبع والنشر

خلف الجامع الأزهر بالقاهرة




بسم الله الرحمن الرحيم

جمع القرآن

دكتور

جمـــال مصطفى

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونستعيذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

ونشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صل اللهم وسلم ، وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه وأتباعه ، عدد خلقك ، ورضا نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك ، وعدد معلوماتك ، كما ذكرك الذاكرون ، وغفل عن ذكرك الغافلون .

أما بعد :

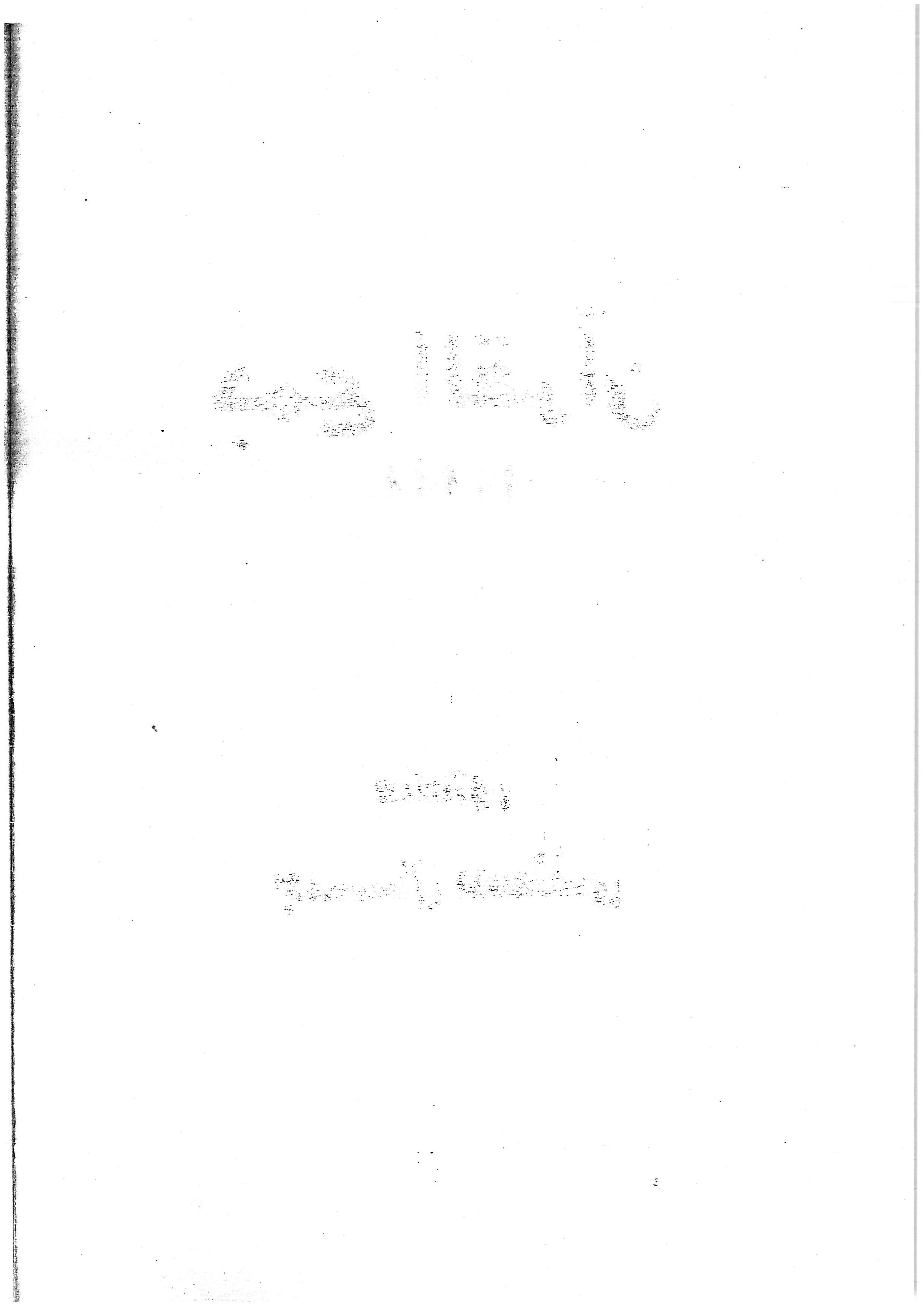
فلقد عاش العالم كله عربه وعجمه ، قبل بعثة الرسول ﷺ حياة ، كلها ألم وظلمات ، وفساد وإفساد ، حتى استحقوا مقت الله وغضبه ، كما قال ﷺ فيما يرويه الإمام مسلم في صحيحه :

« إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » [1]

ولكن ما أوسع رحمة الله ، وما أكرم لطفه ! ! فلقد أنقذ هذه البشرية الضالة المضلة ، من أوحال متعددة ، وظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، فأرسل إليها خير البشر على الإطلاق ، وأنزل عليه خير كتاب سماوي عرفه أهل الأرض وسكان السماء ، وجعل هذا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجنة ، باب (٦٣) .



[illegible]

[illegible]

تأليف

[illegible]

الكتاب روحا ونورا ، روحا يعيد للدنيا حياتها ، ونورا يبدد منها ظلماتها ، فبدونه يكون الناس أمواتا وإن كانت له قلوب تنبض في أجسادهم ، أودماء تسير في عروقهم ، وبدونه يعيش الناس في ظلمات ، وإن كانت تعلوهم شمس مضيئة ، أو يظللهم قمر منير ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [1].

ولقد بلغ الرسول ﷺ قرآن ربه هذا ، بكل أمانة ودقة ، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى ، إلا بعد أن انتهى من مهمته التي من أجلها خلق ، ثم ترك عبء هذه الدعوة لأصحابه الكرام البررة ، فجاهدوا في الله حق جهاده ، بالفعل قبل القول ، وما خافوا في الله لومة لائم ، حتى عم نور هذا القرآن الوجود كله .

ولقد يظن البعض ـ نظرا لاعتناقه الإسلام بالوراثة ـ أن هذا القرآن وصل إليه ، أو إلى أبيه أو جده ، دونما بذل جهد من أولئك الصحب الكرام ، كما تصل البيضة مقشرة على معلقة من ذهب ، إلى رجل متكئ على أريكته ، وهو في ظنه هذا غافل عن تاريخ نشر القرآن ، بل جاهل بتاريخ دينه ودين سلفه الصالح ، لقد كان الصحابة يقدمون أنفسهم قتلى بالعشرات في سبيل تعليم الناس بعض آيات من قرآن ربهم ، هذا هو وفد مكون من عشرة رجال يبعثهم الرسول ﷺ ليعلموا قبائل عضل والقارة القرآن فلما كانوا في الطرق غدروا بهم ، وانتهى بقتلهم جميعا ، وكانت آخر كلمات أحدهم وهو خبيب بن عدي :

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي
وذاك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

---

(1) سورة الشورى : آية ٥٢ .

وهذا وفد آخر مكون من سبعين قارئا للقرآن يرسلهم الرسول ﷺ أيضا ليعلموا بعض القبائل قرآن الله تعالى ، وفي أثناء الطريق يتعرضون جميعا للقتل فيقتلون ، وكان آخر كلمة نطق بها أحدهم ، وهو حرام بن ملحان ، حينما طعن ، وانتضح الدم في وجهه أن صاح قائلا : فزت ورب الكعبة [1] .

إلى غير ذلك من عشرات الصور ، وعشرات الغزوات ، التي استشهد فيها الآلاف المؤلفة من المسلمين من أجل نشر القرآن ، ليعيدوا للدنيا روحها ، التي سلبت منها ، نورها الذي طمس فيها ، وكرامتها التي محيت منها .

دوافع الكتابة :

١ – وتقديرا لمن حملوا إلينا هذا القرآن غضا طريا ، كما نزل من السماء ، من غير تحريف ، بزيادة أو نقصان ، أو بأية صورة من صور التحريف .

٢ – وتخليدا لتسطير آثارهم الصالحة ، التي قد كتبوها على جبهة التاريخ بأرواحهم ودمائهم ، والتي يقول الله عنها : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾ [2] .

٣ – ولما كانت صحة الاعتقاد مبنية على صحة النص القرآني .

٤ – ولما كان المستشرقون ، ومن سار في ركابهم ممن يسكنون ديار الإسلام ، وممن يتسمون بأسماء إسلامية يبذلون طاقتهم في تشكيك المسلمين في سلامة النص القرآني .

٥ – ولما كان كثير من الشباب يعيشون في غربة عن دينهم ، حيث لا يجدون من يهتمون بتربيتهم تربية إسلامية ، أو يعنون بتثقيفهم ثقافة إسلامية محصنة ، فأصبحوا بذلك فريسة سائغة لشبهات الكفار وافتراءاتهم حول القرآن الكريم .

لما كان الأمر كذلك وجدتني مساقا إلى وضع كتاب في جمع القرآن الكريم من يوم

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، غزوتا الرجيع وبئر معونة .

(٢) سورة يس : آية ١٢ .

نزوله من السماء ، إلى أن تكامل في العهد النبوى ، وحمله الصحابة كاملا إلى كل بقاع الدنيا ، كما وجدتني مدفوعا إلى الدفاع عما أثير في هذا الموضوع من شبهات .

وإني لأبرأ إلى الله عز وجل في هذا من كل حول وقوة ، فسما كان فيه من صواب فهو من توفيق الله لي ، وما كان فيه من غير ذلك ، فهو من تقصيري وجهلي ، فمن أنا حتى يكون عملي معصوما ؟

ما أنا إلا بشر ، خاطبني الله وغيري ، بقوله : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[1] .

نسأل الله عز وجل ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله في ميزان حسناتي ، وحسنات والدي ، وأساتذتي وكل من له فضل علي في ميدان العلم ، كما نسأله عز وجل أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أبو مصطفى

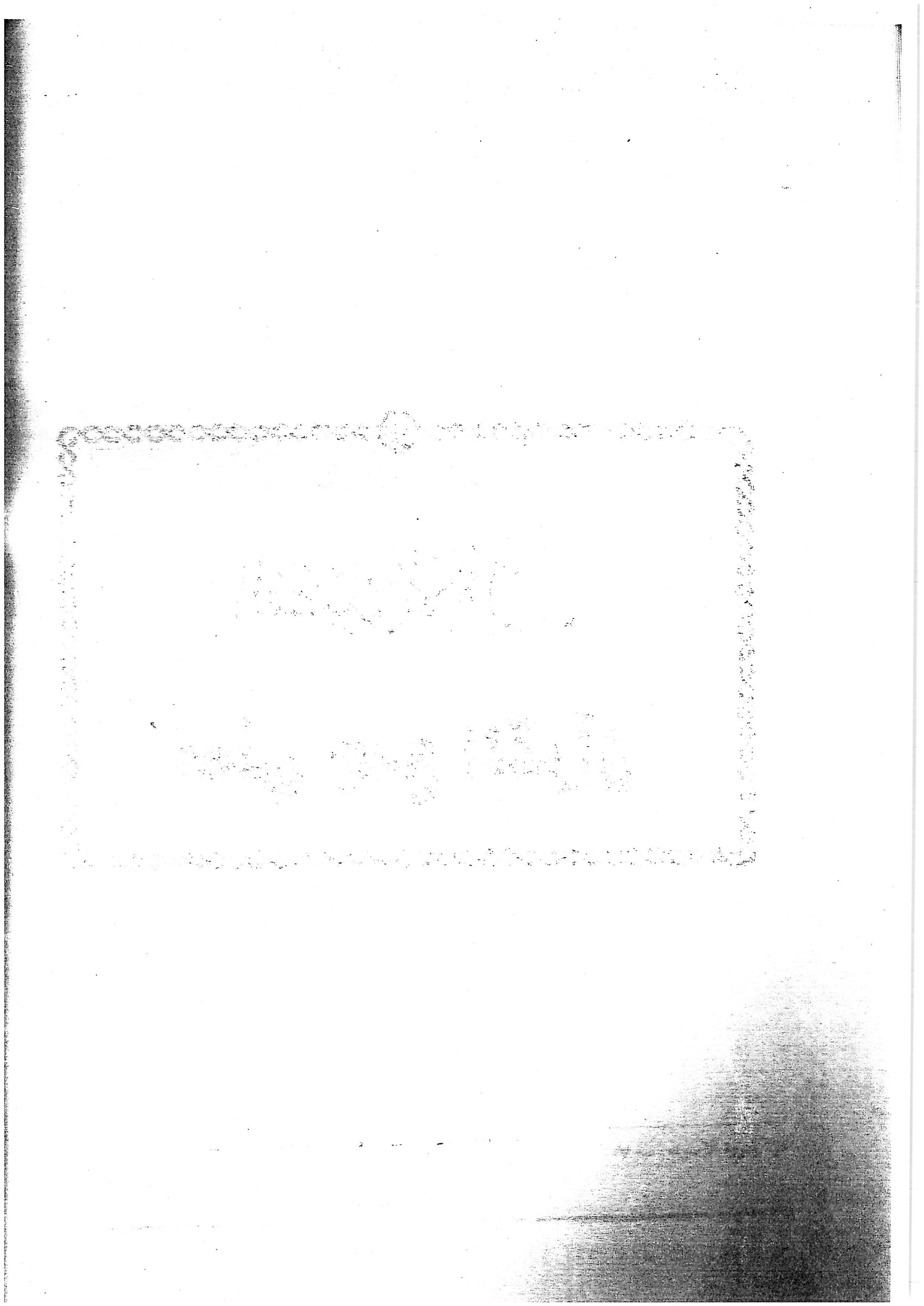
دكتور / جمال مصطفى

---

(٢) سورة الإسراء : آية ٨٥ .

الفصل الأول

معنى جمع القرآن



معنى جمع القرآن

قبل أن نحدد المراد من مصطلح (جمع القرآن) يحسن بنا أن نعرف معنى الجمع لغة ، فنقول :

يقول الفيروز آبادي : « الجمع : تأليف المتفرق »[(١)]

ويقول الراغب الأصفهاني : « الجمع : ضم الشيء ، بتقريب بعضه من بعض ، يقال : جمعته فاجتمع »[(٢)]

ويقول ابن منظور : « جمع الشيء عن تفرقه يجمعه جمعا ، وجمعت الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا ، وتجمع القوم : اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا »[(٣)].

وعلى ذلك : فالجمع في لغة العرب يعني : الضم ، والاستقصاء والإحاطة .

فإن قال قائل : جمع ثمرات النخيل ، فإنه يعني أنه استقصاها وضم بعضها إلى بعض .

وكذلك إن قال : جمعت علم كذا ، فإنما يعني أنه استقصى أصوله وفروعه ، وأحاط بجميع جزئياته وجوانبه .

المراد بجمع القرآن :

فإذا أردنا أن نطبق هذا المعنى اللغوي على القرآن الكريم ، فإننا نقول : إن المراد بجمعه استقصاء جميع آياته وسوره ، وضم بعضها إلى بعض ، بالترتيب المعروف .

---

(١) القاموس المحيط : ٣/ ١٤ ، ط دار الجيل بيروت .

(٢) المفردات في غريب القرآن : ٩٦ ، ط دار المعرفة ببيروت .

(٣) لسان العرب : (جمع) .

وهذا الجمع يتحقق بإحدى وسيلتين . .

الأولى : عن طريق حفظه في القلب ، ونقشه في الذاكرة ، ويدل لهذه الوسيلة آيات وأحاديث .

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[1] ، قال الزمخشري وغيره في تفسير هذه الآية : « إن علينا جمعه في صدرك ، وإثبات قراءته في لسانك »[2]

ومنها ما جاء عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : « جمعت القرآن ، فقرأته كله في ليلة ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخشى أن يطول عليك الزمان ، وأن تمل ، فاقرأه في شهر ، فقلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي ، قال : فاقرأه في عشرة ، قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي ، قال : فاقرأه في سبع ، قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي فأبى »[3] .

فقول عبد الله بن عمرو (جمعت القرآن) معناه حفظته عن ظهر قلب .

الوسيلة الثانية لجمع القرآن ، جمعه عن طريق كتابته

ويدل لهذه الوسيلة أكثر من عبارة وردت في حديث واحد ، على لساني أول وثاني خليفتين لرسول الله ﷺ ، وعلى لسان أحد كتاب الوحي حيث قال عمر لأبي بكر : (وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن) .

وحيث قال أبو بكر لزيد بن ثابت : (فتتبع القرآن فاجمعه) .

وحيث قال زيد بن ثابت : « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال »[4] .

وإذا نظرنا إلى أشهر أسماء القرآن الكريم ، فإننا سنجد فيها اسمين يتصدرانها جمعيا ؛

---

(1) القيامة : ١٧ .

(2) الكشاف : ٤ / ٦٦١ .

(3) أخرجه ابن ماجة : كتاب إقامة الصلاة ، باب (١٧٨) .

(4) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

١ – اسم (القرآن) .

٢ – واسم (الكتاب) .

فالاسم الأول إشارة إلى جمعه عن طريق الوسيلة الأولى ، وهي الحفظ في الصدور ، والاسم الثاني إشارة إلى جمعه عن طريق الوسيلة الثانية ، وهي الحفظ في السطور .

يقول الإمام السخاوي في جمال القراء :

« القرآن اسم من أسماء هذا الكتاب العزيز ، والقرآن معناه الجمع ، من قولهم قرأت الشيء ، أي جمعته ، ويدل على ذلك قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[١] أي فإذا جمعناه فاتبع جمعه .

إلى أن يقول : (ومن أسمائه : الكتاب ، سمي بذلك : لأن الكتب - بفتح الكاف وسكون التاء - الجمع ، يقال كتب : إذا جمع الحروف بعضها إلى بعض ، وتكتب بنو فلان - بفتح أوله وثانيه ، وثالثه مع تشديده ، أي اجتمعوا) .

ثم نقل عن أبي عبيدة قوله : « سمي قرآنا لأنه جمع السور وضمها ، وكذلك تسميته بالكتاب أيضا »[٢] .

وعلى ذلك يكون القرآن الكريم قد اجتمع له من وسائل الجمع أعلاها ، ومن طرق الحفظ أقواه ، صيانة له من التبديل ، ورعاية له من نسيان إنسان ، أومن افتراء عدوله ، حتى إذا حدث لفرد أو جماعة خلل في إحدى الناحيتين - أعنى الحفظ والكتابة - وجدت الناحية الأخرى ، مذكرة ومنبهة .

وإذا كان قد توافر للنص القرآني تلك المنزلة السامية ، من الحفظ في صدور الرجال ، وسطور الكتب ، فإن ذلك ليس بكثير عليه ، بل إن هذا هو اللائق به ، والواجب تجاهه ، حيث يمثل للمسلمين المصدر الأول في العقدية والتشرع ، وحيث يعتبر خاتم الكتب السماوية ، فلا كتاب بعده إلى أن تقوم الساعة ، فكان من رحمة الله

---

(١) سورة القيامة : آية ١٨ .

(٢) جمال القراء : ١ / ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ .

بآخر الأمم أن تكفل بحفظ القرآن ، حتى لا يعبث به عابث ، فيلبس على الناس دينهم ، ويخلط عليهم أمورهم ، فيشتبه عليهم الحق والباطل ، فيضلون ويضلون ، تماما كما حدث لليهود والنصارى ، حينما وكل الله إليهم حفظ كتبهم ، فبدلوا وغيروا .

أما وقد تكفل الله بحفظه ، فقد هيأ له أسباب ذلك في كل زمان ومكان ، فقيض له رجالا يحفظونه في صدورهم ، ويكتبونه فيما يتيسر لهم ، ليتكاتف المحفوظ مع المكتوب ، ولينبه المكتوب الذهن إذا احتاج إلى تنبيه .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم :

روعي في تسميته (قرآنا) كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته : (كتابا) كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين ، لا في موضع واحد .

أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

فلا ثقة لنا بحفظ حافظ ، حتى يوافق الرسم المجمع عليه ، من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة .

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب ، حتى يوافق ما هو عند الحفاظ ، بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة ، التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية ، اقتداء بنبيها ﷺ ، بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، إنجازا لوعد الله ، الذي تكفل بحفظه ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل ، وانقطاع السند ، حيث

---

(١) الحجر : ٩ .

لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى :﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِما اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ ﴾ [1] أي بما طلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة : أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ، ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها ، من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، كان سادا مسدها ، ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضي الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم » [2] .

وهكذا تحقق للقرآن الكريم ـ بحكم خلوده ، وبحكم تكفل الله لحفظه ، وبحكم كونه المصدر الأول للعقيدة والشريعة ، وبحكم عموميته لكل الخلق أجمعين ـ تحقق له أفضل وسائل الحفظ على الإطلاق ، وبشروط خاصة ، حتى يبقى لهذا النور ضياؤه المشع على الدنيا كلها ، وقداسته التي تجعله فوق ارتياب كل مرتاب ، ليكون هاديا لأولي الألباب .



(١) المائدة : ٤٤

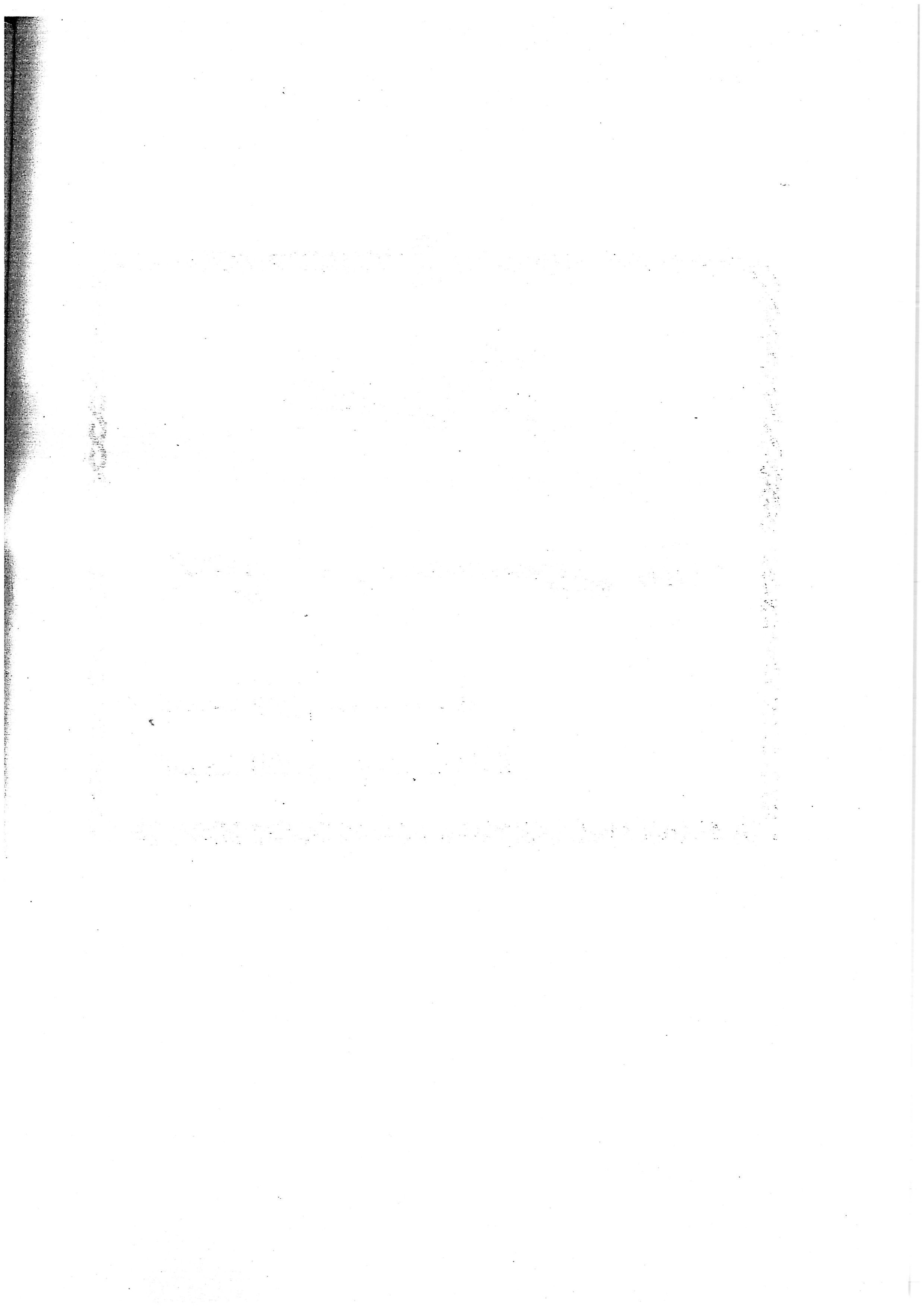
(٢) النبأ العظيم : ٧ – ٩ ، ط السعادة ، ١٩٦٩ م .

الفصل الثاني

جمع الرسول ﷺ

المبحث الأول : جمعه حفظا .

المبحث الثاني : جمعه كتابة .





تمهيد :

وبعد أن عرفنا معنى الجمع في لغة العرب ، وبيان المراد منه في جانب القرآن حيث يقصد منه ضم كل آيات السورة الواحدة ، مرتبة على النحو الذي نزل به جبريل من السماء ، ثم ضم كل سورة إلى أختها ، واستقصاء ذلك كله ، بحيث لا تسقط سورة ولا آية ، بل ولا حرف واحد ، وأن هذا الجمع يكون بإحدى طريقتين ، إما بالحفظ في الصدور ، وإما بالكتابة في السطور ، بعد ذلك كله يحسن بنا أن نعرج على الحديث عن جمع القرآن ، في أهم وأخطر المراحل التي مر بها ، وعايشها المسلمون .

هذه المراحل هي :

١ – جمعه في العهد النبوي ، وذلك على يد كل من :

(أ) الرسول ﷺ ، حفظا وكتابة .

(ب) صحابته الكرام حفظا .

٢ – جمعه كتابة في عهد أبي بكر الصديق .

٣ – جمعه كتابة في عهد عثمان بن عفان .

ونبدأ الحديث عن جمع الرسول ﷺ فنقول :

لقد جمع الرسول ﷺ قرآن ربه عز وجل بكلتا الوسيلتين معا ، أعني عن طريق الحفظ في الصدور ، وعن طريق الكتابة في السطور .

ولنفرد كل جمع بالحديث ، وبشيء من التفصيل ، في مبحثين :

المبحث الأول

جمعه ﷺ حفظا

فحينما اقتضت حكمة الله تعالى ، أن ينزل للناس كتابا ، فيه يأمرهم وينهاهم ، وبه يخرجهم من الظلمات إلى النور ويرعاهم ، إذا به يصطفي أميا من أمة أمية ، حتى لا يرتاب في نبوته مرتاب ، إذا كان قد تتلمذ على يد مدرس ، أو قرأ الكتاب .

وإذا بهذا النبي الأمي سيدنا محمد ﷺ يتلقى الوحي من السماء ، فيجهد نفسه في تلقيه أشد ما يكون الجهد ، ويستحضر كل قواه الذهنية ، لينقش ذلك الوحي في قلبه أقوى مما ينقش لفظ على حجر ، حتى لا تتفلت منه كلمة ، أو يلتبس عليه حرف .

إلى أن يصل حرصه ذلك إلى ملاحقة جبريل في قراءته ، وتسرعه في الأخذ عنه ، وترديده ما يسمع منه ، قبل فراغ جبريل من قراءة ما نزل به .

وللرسول ﷺ عذره في ذلك .

فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وشأن الأمي أن يعول على ذاكرته لتكون مرجعا له وقتما يريد .

وله عذره أيضا : لأن هذا القرآن لا يجوز لمخلوق بحال من الأحوال إبدال حرف منه بحرف آخر .

وإذا كان الرسول ﷺ قد تسرع في القراءة ، فما أسرع رحمة ربه به ! !

لقد تدارك عز وجل هذا الأمي ، حيث تكفل له بعدم نسيان ، شيء من قرآنه .

وما دام الأمر كذلك : فلا داعي للقلق ، ولا ضرورة للتسرع فالأمن من التغيير والتبديل والنسيان إذا مضمون وما على هذا النبي الأمي إلا حسن الإنصات ، ساعة أن ينزل عليه الوحي ، وليكل الأمر بعد ذلك إلى مولاه ، حيث يرسل له عنايته لترعاه ، ولتنقش في قلبه ما تسمعه أذناه ، وحيث يسخر له توفقيه ، لييسر له استحضار كلامه على لسانه ، وليسهل له استنباط حكمه وأحكامه .

أخرج البخاري وغيره عن موسى بن أبي عائشة أنه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ** ﴾[1] قال : وقال ابن عباس : « كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه ، فقيل له : لا تحرك به لسانك ـ يخشى أن ينفلت منه ـ ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ** ﴾ أن نجمعه في صدرك ، ﴿ **وَقُرْآنَهُ** ﴾ أن تقرأه ، ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** ﴾ يقول أنزل عليه ﴿ **فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ أن نبينه على لسانك »[2] .

كما أخرج البخاري أيضا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴾ قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي ، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه ، وكان يعرف منه ، فأنزل الله الآية التي في ﴿ **لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ قال علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله »[3] .

وبمجرد أن نزل النهي الإلهي عن التسرع في الأخذ عن جبريل ، وبمجرد أن طمأن الله نبيه ﷺ ، بجمع القرآن في قلبه ، وتيسير استحضاره على لسانه ، إذا بالرسول ﷺ يتفاعل مع هذا النهي ، فلا يقرأ إلا بعد فراغ جبريل من قراءته ، وإذا قرأ مفسرا واضحا ، بين المخارج ، ظاهر الصفات .

---

(١) القيامة ١٦ .

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة القيامة .

(٣) نفس الموضع السابق

أخرج البخاري وغيره عن قتادة قال : «سئل أنس : كيف كانت قراءة النبي ﷺ ؟ فقال : «كانت مدا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم»» [(١)].

وأخرج الترمذي عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة زوج النبي ﷺ عن قراءة النبي ﷺ وصلاته ، فقالت : مالكم وصلاته ؟ كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح ، ثم نعتت قراءته ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة ، حرفا حرفا » [(٢)]

كما أخرج أبو داود بإسناده عن أم سلمة :

« أنها ذكرت ـ أو كلمة غيرها ـ قراءة رسول الله ﷺ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقطع قراءته آية آية » [(٣)].

وهكذا كان ﷺ كلما نزل عليه نجم من نجوم القرآن ، جمعه الله له في صدره ، فوعاه قلبه ، واشتغل به لسانه ، لنفسه وللمسلمين ، في الصلاة وخارجها ، في سفره وحضره ، في سلمه وجهاده ، حتى أتاه اليقين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين .

العوامل التي ساعدت رسول الله على حفظ القرآن :

وجدت عوامل عدة ، كان الواحد منها كفيلا بأن يجمع الرسول ﷺ قرآن ربه في قلبه جمعا مكينا ، وهي كثيرة كثيرة ، نقتصر منها على ما يلي :

١ – ضمان الله لنبيه جمع هذا القرآن في قلبه الطاهر ، كما مر آنفا ، حيث كان يتسرع في أخذه عن جبريل أثناء الوحي ، فنهاه ربه عن هذا التسرع ، وطمأنه بجمعه له ، فقال مخاطبا : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه

---

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب مد القراءة .

(٢) الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب كيف كان قراءة النبي وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة .

(٣) أبو داود في سننه ، في كتاب الحروف والقراءات .

وقرآنه) أي إن لك علينا أن نجعل قلبك حافظا لكل لفظ من ألفاظه ، فلا تنساه ونجعل لسانك مذللا لقراءته ، ومسخرا لتلاوته .

٢ - إيجاب الله على رسوله تبليغ هذا القرآن لأمته .

فلم يكن هذا التبليغ في حقه ﷺ إلا واجبا ، وحيث وجب عليه التبليغ وجب عليه الحفظ ، وإلا فكيف يقع التبليغ ؟

ولا يقال إنه كان من الممكن الاكتفاء بإملاء الرسول ﷺ ما ينزل عليه من ربه ، ذلك أن القرآن لابد من تلقيه شفهيا ، حتى ينطق به كما نزل من السماء ، دونما خطأ أو تغيير .

٣ - أمية الرسول ﷺ .

فمعلوم أنه عليه السلام كان أميا ، بل كانت أميته هذه دليل حق على صدق نبوته ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [1] .

ومن شأن الأمي أن يجعل من ذهنه حافظته التي إليها يرجع فيما يريد ، ومن عقله سجله الذي يضمنه ما يشاء ، خصوصا إذا كان يعيش بين أمة أمية ، يغلب عليها الجهل ، ويقل فيها من يجيد كتابة كلمة ، أو قراءة جملة .

٤ - الظروف الطبيعية للمكان الذي نشأ وترعرع فيه الرسول ﷺ . لقد ولد وشب وشاب في بيئة صحراوية واسعة ، تعلوها السماء الصافية ، والشمس الدافئة . والقمر المضيء ، والنجوم المتلألئة، ويتخللها الهواء النقي ، ويسودها المناخ المعتدل السوي . . .

وتلك هبة من الله تعالى لهذه البيئة ، لها عظيم الأثر في حدة الذهن ، وصفاء الفكر ، وقوة القريحة ، مما جعل ملكة الحفظ عنده ﷺ ينقش فيها القرآن ، نقش الألفاظ على الحجارة ، بل أشد تثبيتا .

٥ - حب الرسول ﷺ لربه ، بصورة لم يوجد لها في الكون مثيل . هذا الحب الذي

---

(١) العنكبوت ٤٨ .

بدا عليه طاغيا قبل البعثة ، للدرجة التي جعلته في بعض الأحايين يترك الدنيا وما فيها ، ويخلوا بنفسه في غار حراء ، إلى أن نزل عليه فيه الوحي ، وأعلمه بأن الله اصطفاه من بين خلقه ليكون رحمة لمن أراد هداه وحينئذ وبعده ازداد ذلك الحب ازديادا لا نظر له ، حتى يمتلك عليه كل وقته ، خاصة إذا جن الليل ، وأرخى أستاره ، فيقف بين يدي ربه مناجيا متقربا ، ضارعا ، متذللا ، شاكرا لأنعمه ، شكرا جعله في هذه المناجاة ينسى أكله وشربه ، بل وتعب جسده ، الذي يصل إلى حد تورم القدمين ، من الوقوف مبتهلا متضرعا ، حتى يأخذ عليه صحابته كل ذلك التعب ، وهو الذي غفر له ما تقد من ذنبه وما تأخر ، فيقول مرشدا ومعلما : « أفلا أكون عبدا شكورا »[1] .

ومعلوم أن المحب إذا أخلص لمن يحب ، وخالطت بشاشته سويداء قلبه ، أجهد نفسه في وعي كل ما يقوله حبيبه ، بل يتلذذ بتكراره ، وتحدث له نشوة بترداده ، نشوة تحمله على إدمان متابعة آثاره ، وحفظ أقواله وأخباره ، ولو كان على حساب طعامه وشرابه ، كما قال الشاعر :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها	عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء به	ومن حديثك في أعقابها حاد
إذا اشتكت من كلال السير واعدها	روح القدوم فتحيا عند ميعاد

٦ – إملاؤه ﷺ على كتبة الوحي .

فإن من تلقى شيئا ، وحفظه جيدا ، ثم أملاه على غيره ، كان ذلك أحفظ له من ذي قبل ، وأوعى ، وأشد تثبيتا .

٧ – تنجيم القرآن على قلبه الشريف ﷺ .

فمعلوم أن القرآن نزل في أكثر من عشرين عاما مفرقا ، ولاشك أنه بتلك الكيفية ـ خاصة وأن كثيرا منه قد نزل مجاريا للحوادث والوقائع والأسئلة التي شغلتهم ـ لاشك أنه بتلك الكيفية أصبح ميسرا للذكر والحفظ ، تيسيرا ما بعده تيسير ، ليثبت

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة الفتح .

للنبي ﷺ قلبه ، ثباتا مكينا ، فيعي حكمه وأحكامه ، وإلى هذه الحكمة يشير قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

٨ – تعبده ﷺ بالقرآن ، في جميع صلاواته ، سواء كانت فرضا ، أم نافلة ، وسواء أكان الحال حال سفر أم حال حضر .

أخرج مسلم في صحيحه عن حذيفة ﷺ قال :

« صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضي ، فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع . . . الحديث » (٢) .

٩ – مدارسة جبريل القرآن للرسول ﷺ .

فإن جبريل عليه السلام لم يكتف بتبليغ الرسول قرآن ربه ، بل كان يسمعه منه حتى يزداد ثبات قلب النبي ﷺ به ، وليطمئن جبريل أكثر وأكثر من أن ما في قلبه موافق تماما لما استقر عليه آخر الأمر .

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن . . . الحديث » (٣) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أنها قالت : « فأخبرني (أي الرسول ﷺ) أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضه الآن مرتين ، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب » (٤) .

---

(١) الفرقان ٣٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل .

(٣) البخاري في صحيحه ، في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة .

(٤) مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة بنت النبي .

١٠ – ديمومة رجوعه ﷺ إلى القرآن ، في كل أمر من أمور دينه .

خاصة إذا طلب منه بيان حكم مبهم ، أو تفصيل شأن مجمل ، أو توضيح أمر مشكل ، أو إزالة لبس وقع لبعضهم .

ولا شك أن هذه الديمومة كانت من أهم عوامل التثبت لهذا القرآن في قلب النبي ﷺ .

١١ – زهده ﷺ في الحياة وزينتها وقد بدت عليه علامات الزهد هذه قبل البعثة ، وبعدها ، إلا أنها تجلت بوضوح شديد بعد البعثة ، خاصة بعد الإذن في قتال الأعداء ، وتحليل أموالهم وممتلكاتهم ، من غنيمة وفيء ، وجعل قدر كبير منها خاصا لرسول الله ﷺ .

ومع ذلك ، تعزف نفس الرسول عنها ، فلا يأكل كما يأكل باقي الناس ولا يعيش كما يعيشون .

أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال : « لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ، وما أكل خبزا مرققا حتى مات »[1] .

كما أخرج البخاري أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير ، في رف لي ، فأكلت منه حتى طال علي »[2] .

والزهد في الحياة ومتاعها يجعل الإنسان راضيا بأقل رزق موجود ، غير باك على ما لم يصل ، أو على أي مفقود ، مما يكون له عظيم الأثر على نفس صاحبه ، وصفاء قلبه ، فيؤثر ذلك بدوره على قوة ذاكرته ، وسيلان ذهنه .

فإذا أراد صاحب هذا الحال حفظ شيء تمكن من قلبه أشد ما يكون التمكن ، على حد قول من قال :

* فصادف قلبا خاليا فتمكنا *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ، والخوان : المائدة ما لم يكن عليها طعام .

(٢) نفس الموضع السابق .

الى غير ذلك من الأمور ، والتي سنذكر بعضا منها إن شاء الله عند تعرضنا لعوامل حفظ القرآن لدى الصحابة ، والتي كانت قدرا مشتركا بين الرسول ﷺ ، وصحابته الكرام ، وجميع المسلمين ، والتي جعلته عليه السلام أتقن المتقين للقرآن ، وسيدا للحافظين ، وإماما وقدوة للقراء والمقرئين .

* * * *

المبحث الثاني

جمعه ﷺ كتابة

من المتواتر عن الرسول ﷺ ، وعن القرآن الذي أنزل عليه ، أنه كان يأمر بكتابة كل نجم منها بمجرد فراغ جبريل عليه السلام ، من قراءته له ، سواء أكان ذلك النازل سورة أم آية ، أم أقل من ذلك ، أم أكثر .

ولم يكتف ﷺ بحفظه وحفظ صحابته الكرام ، زيادة في توثيق هذا القرآن ومبالغة في المحافظة على كل حرف من حروفه .

وقد ثبت هذا التواتر بآيات وأحاديث وآثار متعددة ، يحسن بنا أن نذكر بعضا منها ههنا .

١ – إطلاق لفظ الكتاب على القرآن الكريم ، في مواضع متعددة في أكثر من سورة من سور هذا القرآن ، كقوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ .

قال ابن منظور في لسان العرب نقلا عن الأزهري : « الكتاب : اسم لما كتب مجموعا »[1] فهذا اللفظ ـ أعني لفظ الكتاب ـ يدل على أن القرآن مكتوب .

يقول مؤلف كتاب « تدوين القرآن ، الوثيقة الأولى في الإسلام » : « إن النص المنزل لم نقتصر على كونه « قرآنا » ، أو مجموع من الآيات التي تتلى ، أو تقرأ ، أو تحفظ في الصدور ، وإنما كان أيضا « كتاب » مدونا بالمواد ، فهاتان الصورتان تتضافرن ، وتصحح كل منهما الأخرى .

ولهذا كان الرسول ﷺ ، كلما جاء الوحي وتلاه على الحاضرين ، أملاه فورا على

---

(١) لسان العرب

كتبة الوحي ، ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم ، مثل الرق ، أو الخشب ، أو قطع الجلد ، أو صفائح الحجارة ، وكسر الأكتاف .[1]

٢ – ومن الآيات الدالة على أن القرآن كان يكتب أيضا قوله تعالى في سورة البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

قال الفخر الرازي في تفسير هاتين الآيتين : « اعلم أن الصحف جمع صحيفة ، وهي ظرف للمكتوب »[2] .

٣ – ومن النصوص في ذلك أيضا : ما رواه ابن عباس عن عثمان ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده يقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »[3] .

٤ – ومن ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[4] .

أخرج البخاري عن البراء ﷺ قال : « لما نزلت ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول الله زيداً فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته ، فأنزل الله ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾[5] .

٥ – أخرج البخاري وغيره أن أبا بكر قال لزيد بن ثابت رضي الله عنهما : « كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ »[6] .

٦ – أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه »[7] .

---

(١) تدوين القرآن ، للدكتور محمد القبيسي ، ص ١٥ ل درا الآفاق الجديدة ببيروت .

(٢) مفاتيح الغيب ٣٢ / ٤٢ .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، في سورة التوبة .

(٤) النساء ٩٥ .

(٥) في كتاب التفسير ، تفسير سورة النساء .

(٦) البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٧) أخرج مسلم في كتاب الزهد ، باب ٧٢ .

فهذا الحديث يدل على أن الصحابة في أول الأمر كانوا منهيين عن كتابة الحديث النبوي ، ومأذونا لهم كتابة القرآن فقط ، خشية الالتباس .

٧ - روي البخاري ومسلم وغيرهما « أن رسول الله ﷺ نهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو »[١] .

٨ - أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال : « كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، إذ شخص ببصره ثم صوبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة[٢] : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ .. الآية .

يقول المحاسبي : « كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته »[٣] .

وهكذا تتوارد النصوص المتواترة وأقوال العلماء على أنه ﷺ كان يأمر بعض أصحابه ممن يجيدون الكتابة بكتابة ما ينزله الله من قرآن .

وقد بلغ عدد هؤلاء الكتاب ما يزيد عن أربعين كاتبا ، كانوا هم الخيرة من أصحابه ﷺ ، ومن هؤلاء كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري : الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد ثم رجع إلى الإسلام ، والزبير بن العوام ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص ، وحنظلة بن الربيع الأسدي ، ومعيقيب بن أبي فاطمة ، وعبد الله بن الأرقم الزهري ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن رواحة ، وآخرون[٤] .

وكان أول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، ثم ارتد ثم أسلم يوم الفتح ، وحسن إسلامه ، وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب ، وكان أكثرهم ملازمة للكتابة زيد بن ثابت ، وعلي بن أبي طالب .

---

(١) البخاري في كتاب الجهاد ، باب ١٢٩ ، ومسلم في كتاب الإمارة باب ٢٩ .

(٢) اخرجه أحمد في مسنده ٤ / ٢١٨ والآية من سورة النحل رقم ٩٠ .

(٣) البرهان ١ / ٢٣٨ .

(٤) فتح الباري ٨ / ٦٣٩

جاء في المصاحف لابن أبي داود السجستاني : « عن خارجة بن زيد قال ، دخل نفر على زيد بن ثابت ، فقالوا : حدثنا بعض حديث رسول الله ﷺ ، فقال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جار رسول الله ﷺ ، فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي ، فكتبت الوحي ، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عنه » .[1]

فيم كان يكتب القرآن في العهد النبوي ؟

باستقراء الأحاديث والآثار الخاصة بكتابة النص القرآني في العهد النبوي نستطيع أن نقول : إن كتاب الوحي كانوا يكتبونه فيما كان ميسرا في هذا الزمان ، حيث كانوا يكتبون في :

١ – الألواح . ٢ – والرقاع .

٣ – والعسب . ٤ – والأكتاف .

٥ – والأضلاع . ٦ – والأقتاب .

٧ – والأديم . ٨ – واللخاف .

والألواح : جمع لوح ، واللوح الصحيفة العريضة ، المتخذة من الخشب والعظم ، ويلحق بهما ما يقوم مقامها ، قال ابن منظور[2] :

اللوح : كل صحيفة عريضة من صفائح الخشب والكتف إذا كتب عليها سميت لوحا ، واللوح الذي يكتب فيه .

والرقاع : جمع رقعة ، سواء أكانت من جلد أم من غيره .

والعسب : بضم العين والسين جمع عسيب ، وهو ؛ كما قال ابن منظور : جريدة من النخل مستقيمة ، دقيقة يكشط خوصها .

---

(١) المصاحف لابن أبي داود ٣ .

(٢) لسان العرب (لوح)

وقال أيضا : « وفي التهذيب : العسيب جريد النخل ، إذا نحى عنه خوصه ، والعسيب ما لم ينبت عليه الخوص ، وما نبت عليه الخوص فهو السعف » [1] .

والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم المعروف ، للحيوان ، فإذا كان عندهم منه شيء قد جف ويبس كتبوا عليه .

والأضلاع جمع ضلع ، وهو الذي يكون للحيوان أيضا .

أما الأقتاب فجمع قتب ، بفتح أوله وثانيه ، وهو قطع الخشب التي تكون فوق ظهر الإبل ، ليركب عليه الإنسان .

وأما الأديم ، فهو الجلد ، وأما اللخاف : فهي كما قال ابن منظور : حجارة بيض ، عريقة رقاق ، واحدتها لخفة ، بفتح اللام ، وسكون الخاء [2] .

ما الدافع لكتابة القرآن في العهد النبوي ؟

وقد يسأل سائل فيقول : إذا كان الرسول ﷺ موجودا بشخصه بين المسلمين ، ومعه من صحابته الحفاظ مالا يحصون عددا ، وإذا كان المعول عليه في المقام الأول هو الاعتماد على المحفوظ لا على المكتوب ، وإذا كان الله ضمن لنبيه عليه الصلاة والسلام جمعه في صدره ، ووعده بأن لا يحدث له نسيان شيء منه ، فما الداعي إذا لكتابة القرآن في عهده ﷺ ؟

ونقول : إن ألفاظ القرآن الكريم مقصودة بذاتها ، فلا يجوز لمخلوق أن يبدل حرفا بحرف ، أو أن يتدخل بزيادة أو نقصان ، إذ أن القرآن كلام الله ، الذي تحدى به الثقلين ، وعلى ذلك فالإعجاز مبني على الألفاظ ذاتها ، فلا محل للتغيير ، مهما كان هذا التغيير ، حيث لا تؤدي عبارة مخلوق مراد الله عز وجل من عبارته هو ، ولذلك لا تجوز روايته بالمعنى .

---

(١) لسان العرب : (عسب) .

(٢) لسان العرب (لخف) .

قال ابن عطية في مقدمة تفسيره :

« وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد »[1] .

وبناء عليه كان من الواجب على الرسول ﷺ والمسلمين أن يأخذوا كافة الاحتياطات لضمان سلامة النص القرآني ، وفي مقدمة تلك الاحتياطات كتابته وتدوينه ، بحيث يتناصر المكتوب والمحفوظ ، خوفا من أن يضل أحدهما ، فيذكره الآخر .

ومن دوافع الكتابة أيضا زيادة مصدر آخر ، لتوثيق القرآن الكريم فلا شك أن الشيء إذا كان له أكثر من جهة توثيق صحته ، وتشهد بسلامته ، كان ذلك أدعى للقبول ، وأحرى بنفي أية شائبة ، تحدث لأي مشكك ، أو متشكك .

ومما زاد من هذه المبالغة في توثيق النص القرآني بالكتابة مع الحفظ أهمية ، طبيعة القرآن نفسه ، حيث تقوم على العموم والخلود ، نظرا لأنه آخر الكتب السماوية ، والناس إلى يوم القيامة ، مادام الأمر هكذا ، في احتياج إلى مرجع للقرآن ، مكتوب ، يرجع كل قطر إليه .

وسبحان الله العظيم . . . . فلقد كشفت الأحداث ـ وبسرعة مذهلة ـ عن فائدة كتابة النص القرآني في العهد النبوي ، حينما استحرى القتل بالقراء في عهد أبي بكر ، وحينما تنازع المسلمون في قراءة القرآن نفسه ، كما سنرى بعد قليل إن شاء الله ، فلقد وجد المسلمون للقرآن في هذه الظروف الحرجة مصدرين يخرجانهم مما يخشون وقوعه ، ومما وقعوا فيه بالفعل ، حيث وجدوا القرآن محفوظا في الصدور ، ومكتوبا في السطور ، فاطمأنت نفوسهم بصورة أكبر وأقوى مما لو كان الموجود هو المحفوظ في الصدور فقط .

كيف كتب القرآن في العهد النبوي ؟

كان القرآن ينزل على الرسول ﷺ ، ويأمر كتبة الوحي بتدوينه ، وقد ذكرنا قريبا بعض الأحاديث الدالة على ذلك ، والتي تنص صراحة على أن الصحابة لم يكن لهم

---

(١) المحرر الوجيز ١ / ٧٢ .

أدنى اختيار في ترتيب ما يكتب بين يديه ﷺ ، ومن هذه الأحاديث حديث ابن عباس عن عثمان رضي الله عنهما ، حيث جاء فيه :

« وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ».

ومنها حديث عثمان بن أبي العاص ، حيث يقول :

« كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، إذا شخص ببصره ، ثم صوبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ . . . الآية ».

وفي حديث للترمذي وغيره عن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع .[1]

ومن هذه الأحاديث حديث في البخاري ، حيث يروى لنا بإسناده عن ابن الزبير أنه قال : « قلت لعثمان بن عفان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال : قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي : لا أغير شيئا منه من مكانه ».[2]

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، لم يكن لهم اختيار في ترتيب ما ينزل من قرآن ، خاصة إذا علمنا أن ذلك القرآن مدون بالكامل في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .[3]

ومعلوم أن ترتيب النزول غير ترتيب التلاوة ، والمعول عليه في الكتابة هو ترتيب التلاوة ، ولذلك كان ﷺ يعلم كتبة الوحي بذلك ، ويعلم المسلمين جميعا بهذا الترتيب حينما يقرأه لهم ، في الصلاة وخارجها .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب فضل الشام .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، في تفسير سورة البقرة .

(٣) سورة البروج : ٢١ - ٢٢ .

قال البغوي في شرح السنة :

« كان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ، ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن ، على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا ، بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان في جمعه في موضع واحد ، لا في ترتيبه ، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة »[1].

وقال الزركشي في البرهان ، معلقا على جمع الصحابة للقرآن ، وترتيبهم إياه كما هو الآن :

« وهذا الترتيب كان منه ﷺ بتوقيف لهم على ذلك ، وأن هذه الآية عقب تلك الآية ، فثبت أن سعى الصحابة في جمعه ، في موضع واحد ، لا في الترتيب ، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ ، على هذا الترتيب ، الذي هو في مصاحفنا الآن »[2].

سمات جمع القرآن في العهد النبوي

من تتبع الأحاديث الخاصة بكتابة القرآن في العهد النبوي ، تستطيع إن نقول أن هذا الجمع الكتابي اتسم بسمات معينة ، كان أبرزها ما يلي :

١- أن القرآن كله جمع مكتوبا في عهده ﷺ .

٢- أن هذه الكتابة كلها كانت بين يديه ﷺ ، وبتوجيهات منه .

٣- أن هذا الجمع كانت كل سورة فيه مرتبة آياتها ، كما هي الآن ، - وان كانت غير مجموعة في شيء واحد - وكان ذلك بأمر من جبريل لرسول الله ﷺ ، والذي أمر بدوره كتاب الوحي بذلك ، ثم بينه عمليا ، يتلاوته لأصحابه في الصلاة ، وخارجها .

---

(١) الاتقان : ١/ ٦٠ ، ٦٢ .

(٢) البرهان : ١/ ٢٣٦

٤- عدم تجانس ما كانوا يكتبون فيه ، فقد سبق أنهم كانوا يكتبون في أشياء مختلفة ، كالعسب ، واللخاف ، والرقاع ، وغير ذلك ، وعلى هذا : فمن الممكن أن يكون هناك سورة واحدة ، قد كتب بعض آياتها على عظم ، وبعضها على العسب ، وبعضها على اللخاف ، وهكذا .

٥- ترتب على عدم التجانس أن هذا المكتوب لم يوضع بين دفتين ، وهذا من البداهة معروف ، حيث كانت الأشياء التي كانوا يكتبون عليها غير متجانسة ، كانت مختلفة في النوع ، والحجم ، طولا وعرضا ، وسمكا ، فجمعها بين دفتين والحال هكذا ، من الصعوبة بمكان ، إن لم يكن من المحال .

٦- أن هذا الجمع كان خاليا من النقط والشكل ، ليكون شاملا للأحرف السبعة ، حتى يتسنى تيسير قراءة القرآن لجميع أفراد الأمة . وعلى ذلك فلو كان في اللفظ أكثر من قراءة ، وكانت كتابته مجردة من النقط والشكل تحتمل القراءتين ، كتب اللفظ برسم واحد ، وإن لم يحتمل الرسم إلا قراءة واحدة ، فالأمر لا يخلو من حالين ، إما أن يكون الرسول ﷺ أمر كاتبا بكتابته برسم ، وأمر آخر بكتابته برسم آخر في صحيفة أخرى ، وإما أن يأمر الكاتب بكتابته برسم ، ثم يتلو على الصحابة جميع القراءات الواردة في اللفظ ، فيعلموا جميع الأوجه فيه .

٧- أن ما كان منسوخ التلاوة كان يرفع بأمر النبي ﷺ ، من هذا المكتوب بين يديه ﷺ ، وإلا التبس أمره .

٨- كان لبعض الصحابة مصاحف خاصة ، وربما كانت هذه المصاحف – نظرا لظروف أصحابها المختلفة والكثيرة – تحتوي على بعض منسوخ التلاوة وهم لا يعلمون ، أو كانت غير كاملة ، وعذرهم في ذلك أنها كانت مصاحف خاصة لهم ، وليست مرجعا عاما لكل الأمة ، يتوقف تحاكم الناس عليها ، وعلى نظامها .

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في عهد الرسول ﷺ ؟

وهنا قد يسأل سائل ، إذا كان للقرآن تلك الأهمية الفريدة ، وذلك الخلود العظيم ، فلماذا لم يجمعه الرسول ﷺ في مصحف واحد ، بحيث تكون محتوياته متجانسة النوع ، ليربطها رابط واحد ؟

وهنا نقول ، لم يفعل الرسول ﷺ ذلك ، لعدة أسباب ، منها :

١- الظروف التي عاشها الرسول ﷺ ، وصحابته الكرام ، بما فيهم كتاب الوحي في المقام الأول .

(أ) كانوا عرضة في أي وقت من الأوقات لسفر من الأسفار ، أو لغزوة من الغزوات .

(ب) وحنث لم يكن نزول الوحي عليه ﷺ مرتبطا بزمان معين ، ولا بمكان خاص .

(جـ) وحيث كانت أدوات الكتابة في ذلك الوقت غير ميسورة .

(د) وحيث كان كتاب الوحي يكتبونه فيما تيسر لهم وقت نزوله فلو طلب من هؤلاء الكتاب جمع القرآن في مصحف واحد ، مرتبا ترتيبا نزوليا ، والحال حال سفر ، أو غزو ، والحصول على أدوات الكتابة ، أمر غير ميسور ، لو طلب منهم ذلك لكان عليهم أن يبحثوا عن أشياء متجانسة ، وبحجم متحد ، حتى يستطيعوا جمعها بين دفتين متماثلتين ، ويربطوا جميعها برباط واحد ، وفي ذلك من المشقة على المسلمين ما هو بين واضح .

٢ - معلوم أن للقرآن الكريم ترتيبين :

(أ) ترتيب النزول .　　　　(ب) ترتيب تلاوة .

أما ترتيب النزول فهو مرتبط بالواقع والأحداث ، وما يعن لأحد من سؤال ، ونحو ذلك ، وأما ترتيب التلاوة فهو مرتبط بترتيب القرآن ، كما هو في اللوح المحفوظ . فلو كتب القرآن مرتبا حسب نزوله ، لخالف ترتيبه في اللوح المحفوظ ، ولوقع اضطراب في

كثير من آياته ، بما يتنافى وإعجازه ، بل لأصبح قرآنا آخر ، سمته الغالبة هي الهلهلة ، وصفته البينة هي الاضطراب وعدم الانسجام .

٣- لو كتب القرآن مرتبا كما أنزل ، ونزلت آية لتأخذ موضعها الحقيقي التي سجلت فيه في اللوح المحفوظ ، فأنها ستجد المكان قد أغلق أمامها ، فهل تهمل كتابتها ، بحجة أنه ليس لها مكان ، أو يكتب القرآن مفرقا غير مجموع بين دفتين ليكون في المجال فسحة لأن تأخذ الآيات النازلة مكانها الطبيعي ، الموافق لما في اللوح المحفوظ ؟

٤- ومما يرتبط بالعامل السابق ويترتب عليه ، أن هذا النص اللاحق لو أراد أن يأخذ مكان الطبيعي في موضع سابق ، لأدى ذلك إلى تغيير ما كتب أولا . فإذا علمنا أن القرآن نزل في نحو ثلاث وعشرين سنة أدركنا مدى هذا التغيير وكثرته ، التي لا تحصى عددا ، بما يوقع المسلمين في حرج شديد ، خاصة مع ندرة أدوات الكتابة ، والظروف التي ذكرناها في السبب الأول .

يقول الإمام الزركشي : « وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ في مصحف ، لئلا يفضي إلى تغييره كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ ، فكتب أبو بكر والصحابة بعده ، ثم نسخ عثمان المصاحف ، التي بعث بها إلى الأمصار »[1] .

٥- معلوم أن القرآن طوال فترة الوحي كان عرضة لنسخ بعض آيات منه ، وفقا للحكمة الإلهية ، في إصلاح البشرية ، فلو كتب مرتبا كما نزل ، بين دفتين ، لم تكن هناك فرصة لحذف ما نسخ تلاوة ، فكان من الطبيعي الانتظار إلى أن يكمل نزول القرآن كله .

يقول الإمام النووي : «وإنما لم يجمعه النبي ﷺ في مصحف واحد ، لما كان يتوقع من زيادته ، ونسخ بعض المتلو ، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ ، فلما أمن

---

(١) البرهان : ١ / ٢٦٢ .

أبو بكر وسائر أصحابه ذلك التوقع ، واقتضت المصلحة جمعه فعلوه ، ﷺ »[1] .

وأيضا لو جمع النبي ﷺ القرآن مرتبا كما نزل في مصحف واحد ، والنسخ لبعض المتلو مازال مترقبا ، لأدى ذلك إلى اختلاط الناسخ بالمنسوخ ، وفي ذلك من اضطراب المسلمين ، واختلافهم في كتاب ربهم ما فيه .

يقول الزركشي : « وإنما ترك – أي النبي ﷺ – جمعه في مصحف واحد ، لأن النسخ كان يرد على بعض ، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف ، واختلاط الدين ، فحفظه الله في القلوب ، إلى انقضاء زمان النسخ ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين »[2] .

٦- يضاف إلى ما سبق من أسباب ، سبب هو من القوة بمكان .

فمعلوم أن جمع القرآن في مصحف واحد ، زمان أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما كان لسبب أوجب عليهما ذلك ، ألا وهو خوف ضياع شيء من القرآن بموت القراء زمان أبي بكر ، وحدوث فتنة عظيمة بين المسلمين في قراءة القرآن زمان عثمان . أما في عهد الرسول ﷺ فلم يوجد سبب يقتضي جمعه في مصحف واحد .

فهو عليه الصلاة والسلام ما زال حيا بينهم ، والصحابة لم يكونوا قد انتشروا في البلاد انتشارهم بعد ذلك .

فهل يخشى ضياع شيء منه حال حياته ﷺ ، وقد ضمن الله له حفظه في قلبه ، فحفظه ومعه المئات من المسلمين يشاركونه هذا الحفظ ؟

وهل يخشى على المسلمين فتنة من اختلافهم في القراءة ، وهو ﷺ مازال حيا ، وقد تكفل الله ببيانه له على لسانه ، فكان ملاذا للمسلمين ، إليه يرجعون في كل صغيرة وكبيرة مما يتعلق بالقرآن ، ويسمعون ويطيعون ؟

قال صاحب تفسير المباني ، في مقدمته : « أنه ﷺ لما وعده الله عز وجل ، أن يحفظ

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ، للنووي : ١٤٩ ، ط مكتبة دار البيان بدمشق .

(٢) البرهان : ١ / ٢٣٥ .

القرآن له وعليه ، ويثبته في قلبه أمن نسيانه ، فعمل على أنه يحفظه على أمته ، ولا يزال يقرؤه عليهم ، ويقرئهم إياه ، ويعظهم به أحيانا ، ويعرفهم الفرائض ، والأحكام ، والمناسب من تأويله ، الذي يعرف بعد تلاوته .

فكان بذلك مستغنيا عن كتب القرآن وجمعه ، وكان المسلمون غانين – وبينهم النبي ﷺ – عن تخليد القرآن في المصاحف و الصحف »[1]

لهذه الأسباب لم يكتب الرسول ﷺ القرآن في مصحف واحد ، فلما احتاج المسلمون أيام أبي بكر إلى ذلك جمعه الصحابة في مكان واحد .



(١) مقدمة تفسير المباني : ٢٣ .

الفصل الثالث

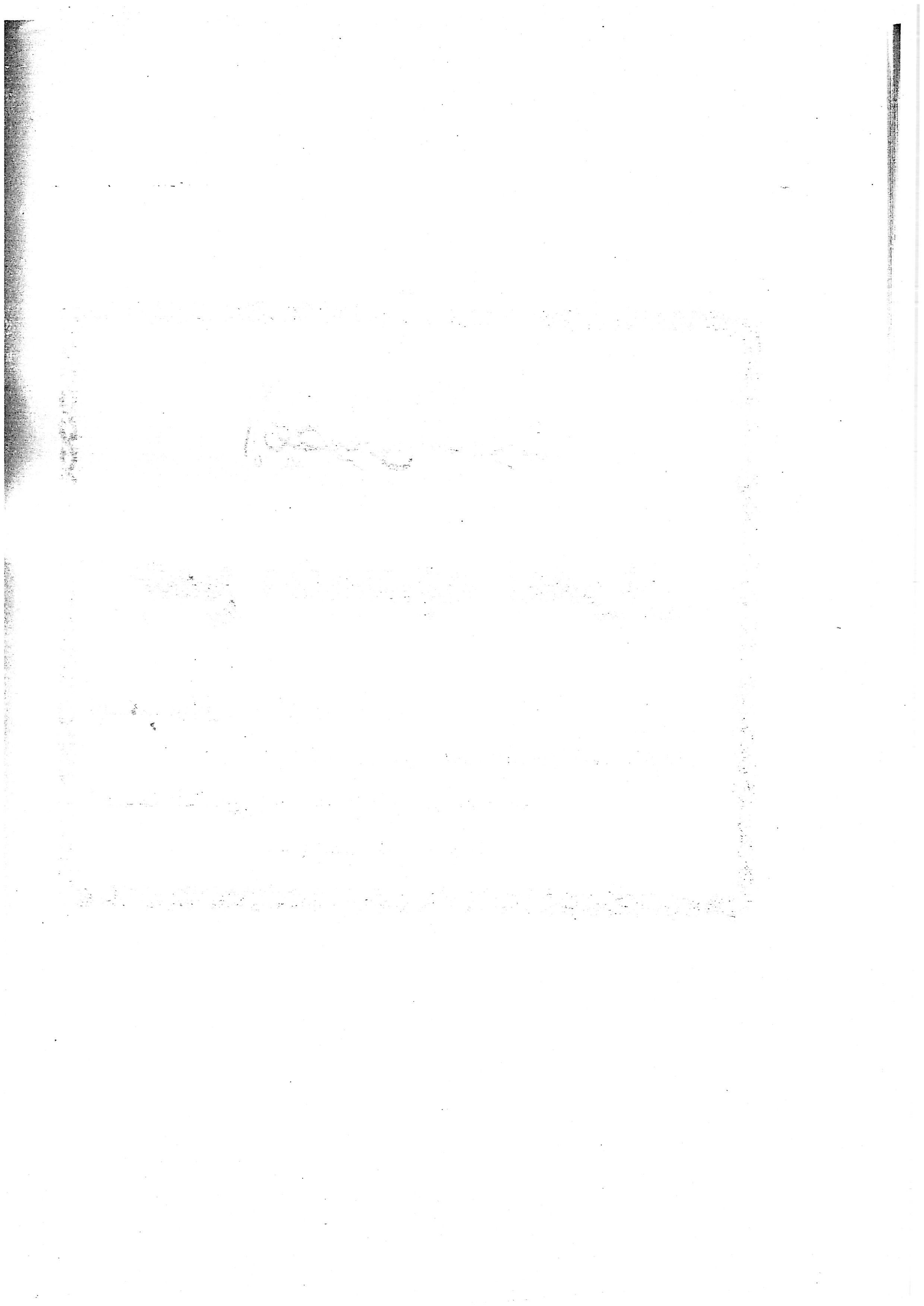
جمع الصحابة للقرآن

المبحث الأول : (أ) تمهيد .

(ب) الأسباب التي دفعت الصحابة لحفظ القرآن .

المبحث الثاني: (أ) كثرة الحفاظ من الصحابة .

(ب) أبطال شبهة سخيفة .

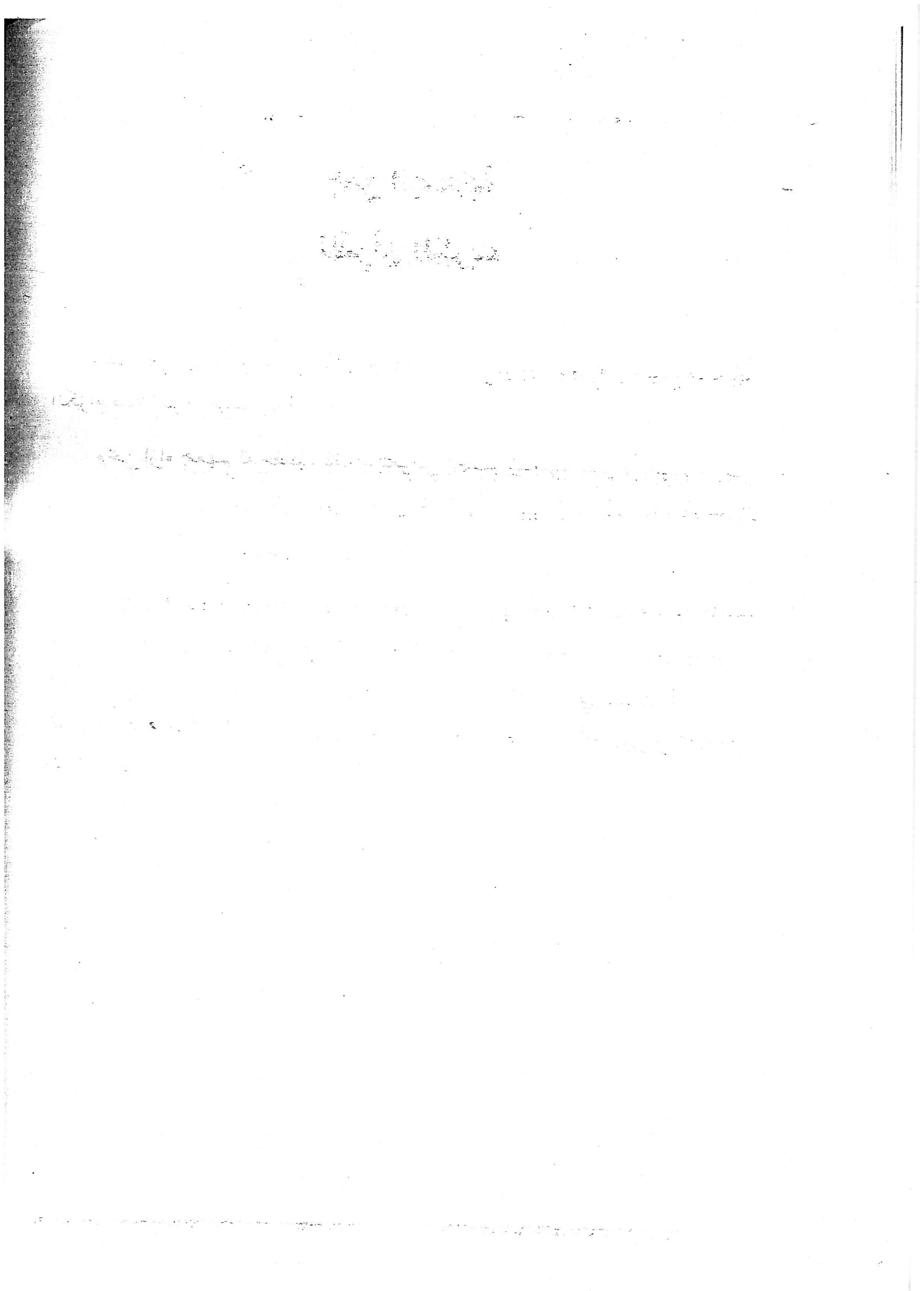


جمع الصحابة للقرآن الكريم

وكما تعرضنا لجمع الرسول ﷺ للقرآن ، حفظا وكتابة ، نتعرض لجمع صحابته الكرام لهذا القرآن حفظا وكتابة أيضا .

ونحن إزاء جمعهم له حفظا ، فإننا سنتعرض لعظيم شغفهم بقرآن ربهم ، وعن العوامل التي دفعتهم إلى ذلك ، دفعا ، والظروف التي هيأتهم إلى أن يكونوا سادة الحفاظ على القرآن ، وأئمة المفسرين له .

أما عن جمعهم له كتابة : فإننا سنتعرض لأهم وأشهر جمعين ، حيث اكتسبا صفة الإجماع عليهما من جميع أفراد الأمة ، وكان لهما من الأهمية ما حفظ الله بهما كتابه من الضياع ، وأمة رسوله ﷺ من التنازع والاختلاف في المصدر الأول من التشريع ، فلم يختلفوا في قرآن ربهم كما اختلفت اليهود والنصارى في كتابهم ، فضلوا وأضلوا .



المبحث الأول

(أ) تمهيد :

أما عن جمعهم عن طريق حفظهم إياه في صدورهم : فكان الرسول ﷺ ، إذا نزل عليه شيء من القرآن ، دعا بعض من يكتب له ، وأملاه عليه ، ثم يقرأه ﷺ على كل من استطاع تبليغه إليه ، بما يكفل للقرآن تواتره ، وذلك تنفيذا لأمر ربه :﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [(١)] .

ونظرا لأمية الغالبية العظمى من الصحابة ، وندرة أدوات الكتابة ، وغير ذلك ، من أمور أخرى سنذكرها الآن إن شاء الله تعالى ، فقد عول الصحابة في المقام الأول في جمعهم للقرآن ، على ذاكرتهم أذهانهم ، وكانوا يفرغون الأوقات خصيصا لأخذه من فم الرسول مباشرة ، أومن فم من أخذ من فمه الشريف ، عليه الصلاة والسلام أخرج البخاري في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : « كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة – وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، من الوحي غيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » [(٢)] .

وإذا كان الصحابة قد اعتمدوا على ذاكرتهم في المقام الأول ، فإن ذلك تحقيق لموعود الله تجاه كتابه ، حيث وعد نبيه ﷺ أن يجعل من قلوب أتباعه أناجيل ، تحوي كتابه ، بعكس كل أمة من الأمم السابقة ، فلم يكن لديهم قدرة على قراءة كتابهم كله من الذاكرة عن ظهر قلب كما هو ، وإنما كانوا يردعون إليه بأبصارهم ، فيما كانوا يسطرون :

روي الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « ...... وان الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب .

---

(١) سورة المائدة : آية ٦٧ .

(٢) اليخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم .

وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرأه نائما ويقظان ، وإن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : رب ! إذا يثلغوا رأسي فيدعو خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك [1] ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشا نبعث مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك .. الحديث » [2] .

فقد دل هذا الحديث على أن الله تعالى خص أمة نبيه ﷺ بكتاب لا يحتاج في حفظه إلى لوح يغسله الماء ، ولكن إلى قلوب طاهرة ، تكون منارة لاستقبال نور الله عز وجل .

وعلى ذلك فالمعول عليه في جمع القرآن ، ونقله متواترا جيلا عن جيل هو حفظه في الصدور ، وليست كتابته في السطور .

يقول ابن الجزري رحمة الله : « ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب ، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

ثم استشهد ابن الجزري على كلامه هذا بالحديث السابق ، ثم علق عليه بقوله :

« فأخبر تعالى أن القرآن يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرأ في كل حال ، كما جاء في صفة أمته (أنا جيلهم في صدورهم) وذلك بخلاف أهل الكتاب ، الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرأونه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب .

ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله ، أقام له أئمة ثقاة ، تجردوا لتصحيحه ، وبذلوا أنفسهم في إتقانه ، وتلقنوه من النبي ﷺ حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ، ولا إثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، وكان منهم من حفظه كله ، ومنهم من حفظ أكثره ، منهم من حفظ بعضه ، كل في زمن النبي ﷺ [3] .

---

(١) بضم النون ، وكسر الزاي ، أي نعينك .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب (٦٣) .

(٣) النشر في القراءات العشر

(ب) الأسباب التي دعت الصحابة لحفظ القرآن عن ظهر قلب :

وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ قد أقبلوا بكليتهم على حفظ القرآن الكريم ، عن ظهر قلب ، وتنافسوا فيه تنافسا لم يحدث أن رأت البشرية تنافسا في حفظ كتاب سماوي أو أرضي مثله ، حتى وجدنا منهم ﷺ المئات قد حفظوه ، فإن ذلك يرجع إلى علة أسباب ، جعلتهم يدفعون إلى هذا الحفظ دفعا ، ويساقون إلى الاستمرار في قراءة القرآن سوقا .

وقبل أن نذكر هذه الأسباب نود أن ننص هنا على أن هذه الأسباب منها ما قد يكون مشتركا بينهم وبين الرسول ﷺ ، دفع الجميع إلى سرعة الحفظ وإتقانه ، كما أننا قد نجد بعض الأسباب التي ذكرناها في حق الرسول ﷺ آنفا متوافرة لدى صحابته الكرام أيضا .

وبناء عليه فلا حرج علينا إن أشرنا الآن في جانب حفظ الصحابة إلى أسباب قد ذكرت في جانب حفظ الرسول ﷺ ، أو إذا ذكرنا أسبابا يصح أن نعتبرها في جانبه ﷺ أيضا ، وذلك بحكم أنه يشاركهم في الإسلام ، وفي العروبة وفي النشأة والبيئة ، ويشارك غالبيتهم العظمى في الأمية .

أما عن هذه الأسباب التي جعلت الصحابة يحفظون القرآن حفظا جيدا ، ويأخذونه بقوة ، فهي كثيرة ، نقتصر فيما يلي على أهمها وأشهرها :

١ - أمية الغالبية العظمى من الصحابة .

فمعلوم أن أمة العرب أمة أمية ، في مجموعها ، لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، كما وصفهم ربهم بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [١] .

ومن شأن الأمة الأمية أن تعول على ذاكرتها ، وتعتمد على حفظها ، ولذلك وجدنا العرب يعولون على أذهانهم في تسجيل مفاخرهم وأنسابهم ، وأشعارهم ، وأيامهم .

٢ - المناخ الطبيعي للبيئة التي نشأوا فيها ، وشبوا في جنباتها ، وترعرعوا في ثناياها .

---

(١) سورة الجمعة : أية ٢ .

فقد كانت بيئة معتدلة المزاج ، لا تَعرف التطرف المناخي كما هو طبيعة بلدان كثيرة من بلدان الدنيا .

فالصحراء الواسعة تسودها ، والشمس المشرقة تتخللها ، والسماء الصافية تعلوها ، والهواء النقي ينقيها ، والقمر المنير ، يضيئها ، والنجوم المتلألئة تسر أنظار ساكنيها .

إنها البيئة التي تلهب وجدان الشعراء ، فيفيضون شعرا ، مليئا بالإحساس الصادق ، والكلمة المؤثرة .

أفلا تؤثر تلك البيئة في اعتدال مزاجهم ، وصفاء قريحتهم وحدة ذهنهم ؟ بلى ، وألف بلى . . .

ولذلك وجدناهم يمتازون في هذه الناحية ـ أعني ناحية اعتدال المزاج وحدة الذهن ، وقوة الحافظة ـ عن غيرهم من الأمم الأخرى ، التي لا تشاركهم تلك البيئة .

ولذلك لم يكن عجبا أن نسمع عن أحدهم أنه كان يحفظ قصيدة تربو على السبعين بيتا عن ظهر قلب بمجرد أن تمر على سمعه مرة واحدة .

٣ – وربما يتصل بالسبب السابق سبب آخر ، ألا وهو :

اختصاص الله تعالى العرب من بين سائر الناس ليكونوا أول من يستقبلون هداية السماء ، ولينطلقوا بنورها إلى كل أرجاء الدنيا .

فمهد لهم الأسباب التي تساعدهم على ذلك ، ومن بينها حدة أذهانهم ، وقوة حافظتهم .

٤ – حب الصحابة المنقطع المثيل لله عز وجل ، ذلك الحب الذي ما رأى الوجود معشار مثله ، وقد سبق أن ذكرنا أن المحب إذا أخلص لمن يحب ، حمله حبه ذلك على إدمان متابعة كلام محبوبه وآثاره ، وحفظ أقواله وأخباره ، ولو كان على حساب طعامه وشرابه ، وماله وبيته ومتاعه ، يعرف ذلك كل من له أدنى تجربة حب خالص ، صادق ، مشروع ، ومن له أدنى إطلاع على النفس وأحوالها ، وعلى القلوب وأخبارها .

فهل يجد الإنسان حبيبا أحب إليه ، من مولاه ، مالك أمره ، وولي كل نعمة تغمره ، وواهب الحياة له ؟

وهل يجد الإنسان كلاما أحب إليه من كلام هو روح هذه الحياة ، والنور المشع في جنباتها ، والذي به يرى ، وبه يتحرك ويسكن ، ولولاه لهام في ظلام دامس ، ولعاش في ضلال حالك ؟

٥ – زهد الصحابة في الحياة ، واقتصارهم فيها على ما يحفظ لهم حياتهم ، دون أن يغرقوا أنفسهم في زخارفها ، أو يتعلقوا بزينتها . . .

وقد كان لهذا السبب من عظيم الأثر ، على نقاء نفوسهم ، وصفاء قلوبهم ، فلم يحزنوا على ما فقدوا ، ولم يطغوا بما وجدوا . . .

ولذلك فما أن قرئ عليهم القرآن ، إلا ووجد من آذانهم آذانا صاغية ، ومن قلوبهم قلوبا واعية ، فكان حفظهم حفظا متينا ، ووعيهم وعيا مكينا .

٦ – تنجيم القرآن على أكثر من عشرين عاما .

فإذا علمنا أن العرب كانوا يمتازون بقوة الحفظ وبراعته ، وسيلان الذهن وحدته ، وأضيف إلى ذلك أن القرآن لم ينزل من السماء دفعة واحدة ، وإنما نزل في أكثر من عشرين عاما ، أدركنا مدى تمكن الصحابة من حفظ القرآن ، وإتقانهم له إتقانا جيدا ، بل بإحاطتهم في جملتهم بمعانيه إحاطة شاملة .

٧ – عملهم بما كانوا يعلمون .

فلم يكن الصحابة تجار كلام ، وما كانوا ليسمعوا قولا ولا يؤثر فيهم ، بل كان الواحد منهم إذا سمع شيئا من القرآن ، نفذه في الحال ، وبلغ به الآخرين ، بقدر ما أوتي من قوة ، وما قصة نزول آية الحجاب وتبليغ الصحابة نساءهم وبناتهم بها بخافية على أحد .

ولاشك أن العمل بالقرآن من أقوى الأسباب ، التي تمكنه في الذهن وتنقشه في القلب .

٨ – وجود الرسول ﷺ بينهم .

حيث كان يتلو عليه في الصلاة وخارجها ، فإذا احتاجوا إلى إزالة لبس ، أو تبيين مشكل ، أو تفصيل مجمل ، وجدا أمامهم المبلغ عن ربه ، والمأمور ببيان كلامه ، يستقبلهم بوجه طلق بشوش ، وبصدر رحب رحيم .

ولا ريب في أن سماع الصحابة من رسول الله ﷺ قرآن الله ، وتفسير ما احتاجوا إليه منه ، من أقوى العوامل لحفظ القرآن الكريم .

٩ – تشريع التعبد بقراءة القرآن ، سواء في الصلاة أم في خارجها ، بعكس الحديث النبوي .

قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١) .

وقال أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (٢) .

وقال أيضا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ . . . الآية (٣) .

وها هو الرسول ﷺ تتورم قدماه في الصلاة من طول قراءته ، وها هم أصحابه يقتدون به في ذلك ، فنجد أبا بكر الصديق يقرأ ذات فجر بسور البقرة كلها ، فيقول له عمر : كادت الشمس تطلع ، فيرد عليه : لو طلعت لم تجدنا غافلين ! !

١٠ – مكانة القرآن عند المسلمين . . .

فالقرآن هو المصدر الأول في التشريع ، وهو المنهج الذي ينظم للإنسان علاقته بالخالق والمخلوق ، على حد سواء ، بل ينظم له علاقته مع نفسه هو ، وعرف المسلمين

---

(١) سورة الإسراء ٧٨ .

(٢) سورة المزمل ١ – ٤ .

(٣) سورة المزمل ٢٠ .

كيف يعيشون دينا ودنيا ، فوضع لهم الأسس التي يبنون عليها أمور الاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والحرب ، وكل أمر في حياتهم ، ليحقق لهم السعادة الكاملة في الدنيا ، والامتلاك التام لناصيتها ، والنجاة من نار الآخرة ، والفوز بجنتها .

أكثير على قرآن هذا شأنه أن يحفظ عن ظهر قلب ؟

١١ – الترغيب في قراءة القرآن ، وحفظه .

وقد ورد ذلك الترغيب مبثوثا بين ثنايا القرآن نفسه ، وفي العديد من أحاديث رسول الله ﷺ ، وهي أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تنسى ، ومن هذه النصوص :

(أ) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [(١)]

(ب) وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [(٢)]

(جـ) وقوله تعالى في الحديث القدسي ، الذي أخرجه الترمذي ، وأبو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الرب عز وجل : من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » [(٣)].

(د) وقوله ﷺ فيما يرويه مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة ، الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران » [(٤)]

(هـ) وقوله أيضا : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (الم) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » [(٥)].

---

(١) فاطر ٢٩ .

(٢) فاطر ٣٢

(٣) الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٥ ، وأبو داود نفس الكتاب ، باب (٦) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المسافرين ، باب ٢٤٤

(٥) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ١٦

(و) أخرج الترمذي أيضا وقال عنه حسن صحيح ، أن النبي ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ ، وارتق ورتل ، كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها »[1].

١٢ – ومما يلتحق بالسبب السابق ، ترغيب بصورة أخرى ، وهي عدم مساواة من لا يحفظ القرآن ، بمن هو حافظ ، وذلك من البداهة بمكان ، وقد وردت النصوص من القرآن والسنة واضحة في ذلك ، ومنها ما يلي :

(أ) قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

ولا شك أن العلم بالقرآن أشرف وأفضل العلوم على الإطلاق .

(ب) ومنها قول الرسول ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[3].

(جـ) وقوله ﷺ : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن ، كالبيت الخرب »[4].

وقد وضح عدم المساواة وضوحا عمليا ، في مجال الحياة ، حينما توقف إسناد كثير من المناصب الخطيرة على حفظ القرآن ، وفهمه ، كالإمامة الكبرى ، وقيادة الجيوش ، والولاية على البلدان ، والقضاء بين الناس ، وإمامة الناس في الصلاة ، وغير ذلك .

أخرج الإمام مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن دانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما »[5] أي إسلاما ، وفي رواية (سنا) مكان (سلما) .

بل بلغ ذلك التفضيل وقت الدفن في القبر .

---

(١) المصدر السابق ، نفس الكتاب ، باب ١٨

(٢) الزمر: ٩ .

(٣) البخاري كتاب فضائل القرآن ، باب ٢١

(٤) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ١٨ .

(٥) مسلم ، كاب المساجد ، باب ٢٩٠

أخرج البخاري وغيره ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : « كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ، في ثوب واحد ، ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد »[1] .

١٣ – ومن الأسباب التي جعلت الصحابة يحفظون القرآن ، بل ويتقنونه أحسن ما يكون الإتقان ، الأمر بمعاهدة القرآن دائما ، والحرص على قراءته باستمرار في أحاديث كثيرة .

منها قوله ﷺ ، فيما رواه البخاري ومسلم : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من الإبل في عقلها »[2] .

١٤ – نزول كثير من آيات القرآن الكريم ، على أسئلة تهم كثيرا من المسلمين ، سواء من المسلمين ، أم من غيرهم ، وعلى وقائع خاصة ، تحتاج إلى تعليق من الله عز وجل عليها ، بتقرير ، وتشجيع ، أو باعتراض ، وتصحيح ، إلى غير ذلك ، مما تقتضيه وقائع الناس وأحوالهم .

ولا شك أن القرآن إذا نزل مرتبطا بوقائع الناس ، وجاريا لحوادثهم . ومجيبا عن أسئلتهم ، تمكن في النفس أشد ما يكون التمكن ، ورسخ في الأذهان في كل الأزمان .

١٥ – بلاغة القرآن نفسه وإعجازه إياهم .

فلقد حوى القرآن العديد من السمات البيانية ، والخصائص البلاغية ، ما جعل العرب أنفسهم ، وهم أهل الصنعة ، وأرباب البلاغة والبيان ـ يقفون مستسلمين ، معترفين بأن هذا ليس من كلام مخلوق .

وأمام تلك السمات ، وهذه الخصائص ، وجد الصحابة متعتهم الروحية والعقلية ، فكان في قراءتهم له ـ كما يقول الدكتور عبد الوهاب غزلان : « متعة نفسية لا حد لها ،

---

(١) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن ، ومسلم في كتاب المسافرين ، باب فضائل القرآن .

فإنهم عرب خلص ، يستطيعون أن يدركوا هذه المزايا ، ويمتعوا بها أرواحهم ، وفي هـذا وحده ما يحبب إليهم الإكثار من قراءته .

ويقرب هذا من أفهامنا ما نجده في أنفسنا من الإقبال على ما نستعذ به مـن كتـب الأدب ، وغير خاف أن الإكثار من قراءته هو السبيل إلى حفظه »[1].

١٦ – سهولة حفظ القرآن الكريم .

فقد كان من رحمة الله تعالى علي خلقه ، أن يسر لهم حفظ قرآنه ، ليجعل من ذلك سبباً مانعا من ضياع شيء منه ، أو حتى مجرد تحريف فيه ، ولو بصورة طفيفية .

فكما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2]

قال أيضا : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3]

وإذا كان حفظ القرآن ميسرا بهذه الدرجة لكل إنسان ، فما بالك بصحابة رسول الله ﷺ ، وهم العرب الأميون ، الذين يمتازون بقـوة الـذاكرة ، وحـدة الـذهن ، وصـفاء القريحة ، وسلامة الفطرة ؟

* * * *

---

(١) البيان ، للدكتور عبد الوهاب غزلان ١٤٩ .

(٢) الحجر ٩ .

(٣) القمر ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

المبحث الثاني

(أ) كثرة الحفاظ من الصحابة

لاشك أن توافر تلك الأسباب السابقة في أي شعب من الشعوب يجعل منهم حفاظا للقرآن ، بل متقنين له ، وأعين لأحكامه ، بل إن ربع هذه الأسباب كفيل بذلك ، فكيف بتوافرها مجتمعة في خير قرن من قرون الزمان على الإطلاق ، حيث جمع الصحابة أتقى أفئدة ، وأسلم فطرة ، وأحد الأذهان ، وأقوى ذاكرة ؟

بلا ريب ستجعل منهم هذه الأسباب مجتمعة - وبكل سهولة - آذانا صاغية لكلام ربها ، وقلوبا حافظة له ، وألسنة شغوفة بترداده ، وستجعل من نهارهم حركة سعي لتحصيله ما استطاعوا ، ومن ليلهم فرصة ينتهزونها ليخلوا به مع أنفسهم وبارئهم ما أطاقوا .

ولذلك : لم يكن غريبا عليهم أن يفرغوا الأوقات لتحصيله .

أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال :

« والله الذي لا إله غيره : ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم ، حيث نزلت . وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت »(١)

كما أخرج البخاري عنه أيضا أنه قال : « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة »(٢)

فإذا عجز أحدهم عن تفريغ وقت لتحصيله مباشرة من فم رسول الله ﷺ ، الشريف ، أناب عنه من يحصل له .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي

(٢) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي .

أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال :

« كنت أنا وجار لي من الأنصار ، في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك »[1]

كذلك لم يكن غريبا قيامهم معظم الليل بهذا القرآن ، والناس في نومهم يغطون ، أو في ملذاتهم وشهواتهم يسبحون ، حتى لقد سجل الله لهم ذلك في قرآنه ، بقوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾[2].

بل كان يسمع لليلهم دوي كدوي النحل من كثرة القراء ، ومن طول قراءتهم ، حتى لو كانوا في غزوة من الغزوات ، وبهم من الإرهاق ما بهم .

أخرج البخاري في كتاب المغازي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ، حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم ، حين نزلوا بالنهار »[3]

ولم يكن هذا الاهتمام الشديد ، وذلك الشغف العظيم بحفظ القرآن خاصا بكبارهم ، بل شمل صغارهم أيضا .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « توفي رسول الله ﷺ ، وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم »[4]

وكان الكبار يشجعون الصغار على ذلك ، ويقدرونهم أيما تقدير .

أخرج البخاري أيضا عن ابن عباس أنه قال :

« كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل

---

(١) البخاري : كتاب العلم ، باب التناوب في العلم .

(٢) الذاريات : ١٧ .

(٣) البخاري : كتاب المغازي ، باب ٣٨ .

(٤) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٥ .

هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعا ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون في قول الله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ [1] .

فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح ـ وذلك علامة أجلك ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » [2] .

وكان الرسول ﷺ يدفعهم إلى التنافس في حفظ القرآن دفعا :

أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فسمعه جار له ، فقال ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يعمل » [3]

وكان ينمي فيهم تلك الهمة العالية ، وتلك المنافسة السامية ، فكان يحب أن يسمع القرآن منهم ، وإذا استمع إلى أحد منهم أثنى عليه وشجعه .

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال له : « لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » [4]

ويبلغ ذلك التنافس من العظمة أنه كان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ، ضجة من كثرة القراءة ، وارتفاع أصواتهم بالقرآن ، فيخرج عليهم النبي ﷺ ، مشجعا وموجها ، قائلا لهم : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن » [5] .

---

(١) سورة النصر .

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، سورة النصر .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٠ .

(٤) البخاري : في كتاب فضائل القرآن ، باب ٣١ ، ومسلم : كتاب المسافرين ، باب ٢٣٦ .

(٥) مالك في الموطأ : كتاب النداء ، باب ٢٩ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٣٦ .

وكان ذلك التشجيع والاهتمام منه ﷺ بأصحابه ، بمجرد أن يأتي الرجل مسلما إليه ﷺ .

عند عبادة بن الصامت ﷺ قال : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا ، يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ يخفضوا أصواتهم ، لئلا يتغالطوا »[1].

ووصل ذلك التشجيع إلى أن المرأة كانت تعتز إذا كان صداقها أن يحفظها من يريد زواجها بعضا من سور القرآن الكريم ، بدلا من أن يكون هذا الصداق مثل صداق مثيلاتهما ، من مال ، أو إبل ، ونحو ذلك .

ولم يقف هذا الاهتمام بتحفيظ القرآن مقصورا على من يعيشون مع رسول الله ﷺ ، بل تعدى إلى المناطق النائية عنه سواء أكان ذلك قبل الهجرة ، أم بعدها .

يعلم ذلك من إرساله ﷺ قبل الهجرة مصعب بن عمير إلى المدينة ، ليقرئ أهلها القرآن ، ومن إرسال القراء إلى القبائل التي كانت تطلب ذلك ، كما حدث مع الوفد الذي غدروا به في بئر معونة . . .

وقد ترتب على كل ما سبق ، من أسباب متعددة ، ومن تشجيع عظيم ، ومن ظروف مواتية أن بلغ عدد القراء من صحاب رسول الله ﷺ من الكثرة ، ما لا يحصى عددا ، ولا يحاك بهم جمعا ، بحيث توافر للقرآن تواتره بهم ، تواترا أجمع عليه المسلمون ، وشهد له غيرهم من المنصفين . . .

ولقد اشتهر من هؤلاء الصحابة جماعة ، فاضت الروايات بذكر أسمائهم ، والتحدث عن مناقبهم ، وإذا كانت تلك الروايات نصت على جماعة بأعيانهم ، فليس معنى ذلك حصر عدد الحفاظ فيهم ، فإن حصر ذلك يفوق القدرة ، خاصة بعد افتتاح البلدان ، واستبحار العمران .

ومن بين الذين نصت الروايات على أسمائهم ـ كما ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام والزركشي ، وابن حجر والسيوطي وغيرهم : كثير من المهاجرين ، وكثير من

---

(١) أحمد في مسنده ٥/٣٢٤ .

الأنصار ، وبعض أزواج النبي ﷺ ، فمن المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمرو ، وعمرو بن العاص ، وأبو هريرة ، ومعاوية ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن السائب.

ومن الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، ومجمع بن جارية ، وأنس بن مالك .

ومن أزواج النبي ﷺ : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة . وقد نص على هؤلاء أبو عبيد ثم قال :

« وبعض ما ذكرنا في القراءة ، وأعلى من بعض ، وإنما خصصنا بالتسمية كل من وصف بالقراءة ، وحكي عنه منها شيء »(١)

ومما هو جدير بالذكر أنه من الصعب في كل زمان استقصاء حفاظ القرآن الكريم ، وذلك من كثرتهم ، وتفرقهم في القرى والأمصار ، فلقد بلغ تواتر القرآن في كل جيل مبلغا ، جعل المسلمين لا يهتمون بإحصاء حفاظه ، لاستغنائهم عن مثل ذلك .

(ب) شبهة سخيفة وبيان زيفها

لعلنا مما سبق ، من الحديث عن الأسباب ، التي لو وجد ربعها في أي جيل من الأجيال ، فضلا عن جيل الصحابة الكرام ، لوجدنا معظمه قد حفظ قرآن ربه ، ولعلنا مما سبق من الحديث عن اهتمام الصحابة الشديد ، وشغفهم العظيم بحفظ القرآن ، وتشجيع الرسول ﷺ لهم ، ولعلنا بعد ذلك كله ندرك أن الكثرة الكاثرة من صحابة رسول الله ﷺ ، كانت تحفظ القرآن كله ، أو معظمه على الأقل ، أو على أقل القليل أن جيل الصحابة قد توافر فيهم من الحفاظ ما يتحقق به تواتر القرآن الكريم ، ولا يشكك في ذلك إلا كافر بربه ، حاقد على دينه .

وللعجب فقد وجد هذا الصنف من الناس الذين حاولوا أن يطعنوا في تواتر القرآن ،

---

(١) انظر المرشد الوجيز لأبي شامة ٤٠ ، ٤١ ، والنشر لأبن الجزري ١/٦ .

زاعمين ندرة حفاظه من خير القرون على الإطلاق ، قرن العهد النبوي ، والنور المحمدي . . .

وقد ظنوا أنهم واجدون لشبهتهم تلك سندا يتكئون عليه من كتب السنة ، التي يشترط أصحابها صحة أسانيدها .

فقالوا إن القرآن غير متواتر ، ودليلنا على ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن أنس ﷺ قال :

« مات النبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » .

وفي رواية أخرى ذكرها البخاري قبل هذه الرواية مباشرة ، عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك ﷺ : من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار ، أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » [1]

وقد يظن جاهل مخدوع أن الأمر كما يدعون ، نظرا لصحة الحديثين اللذين أتوا بهما ، ولكننا في هذا المقام رغم ظهور بطلان هذه الشبهة ، ووضوح زيفها ، لا نملك إلا الوقوف أمامها والإتيان عليها من قواعدها ، ليخر سقفها على أهلها ، فنقول وبالله التوفيق .

١- من ينظر إلى الأسباب السابقة ، والتي أفضنا في الحديث عنها خصيصا لمثل هذه الشبهة ، ويعلم أنها جميعا قد توافرت للصحابة الكرام ، يدرك استحالة أن يكون عدد الحفاظ من الصحابة لا يتجاوز أربعة أشخاص .

٢- لو تتبعنا بعض الأحاديث ، والآثار ، الخاصة بقراء الصحابة لوجدناها تنص على غير هؤلاء .

ومن هذه الأحاديث والآثار من يلي :

(أ) ما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في الصلاة في مرضه ليؤم

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ

الجميع ، بدلا منه ، ولا يعقل أن يكون أبو بكر غير جامع للقرآن ويصلي بمن هو جامع له ، خاصة وأن الذي قدمه هو الذي قال « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله »[1].

يقول أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : « فلولا أنه كان أقرأهم لكتاب الله لما قدمه عليهم ».

ويعلق ابن كثير على كلام الأشعري هذا بقوله : « وهذا التقرير لا يدفع ولا يشك فيه »[2].

(ب) أخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو ابن العاص « كيف تصوم ؟ قلت أصوم كل يوم ، قال : وكيف تختم – (أي القرآن) – قلت : كل ليلة ، قال : ضم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر .... : الخ الحديث »[3].

ورواه ابن ماجة والنسائي بلفظ « جمعت القرآن فقراته كله في ليلة .. الحديث »[4].

(جـ) أخرج البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « والله الذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا اعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه ».

بل إن ابن مسعود يصرح في نفس الموضع من صحيح البخاري ، بأنه كان حريصا على تلقي القرآن شفهيا من في الرسول ﷺ مباشرة ما استطاع ، فيقول :

« والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ ، بضعا وسبعين سورة ».

(د) كما ذكر البخاري في نفس الموضع ، أن النبي ﷺ قال : « خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب ».

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ، باب ٥٣ .

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ٢٨ .

(٣) اليخاري : فضائل القرآن ، باب في كم يقرأ القرآن ؟ ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب ١٨٢

(٤) ابن ماجه ، كتاب إقامة الصرة ، باب ١٧٨ .

(هـ) أخرج ابن أبي داود في مقدمة كتابه « المصاحف » بإسناد حسن عن محمد بن كعب القرظي قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار ، معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري » .

ومعلوم أن عبارة جمع القرآن خمسة من الأنصار لا تفيد الحصر فيهم ، فلا تنافي أن يكون غيرهم من الأنصار قد جمعوه ، كما لا تنافي من باب أولى أن يكون كثير من المهاجرين ، وكثير من غير المهاجرين والأنصار ، من القبائل الأخرى قد جمعوه أيضا . .

(و) قال ابن الطيب فيما ينقله عن القرطبي في مقدمة تفسيره : « ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص » .

إلى أن يقول : « وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة قد جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ ، لأجل سبقهم الإسلام ، وإعظام الرسول ﷺ لهم » [(١)] .

(ز) أخرج البخاري وغيره ، أن وفدا من قبائل عضل والقارة قدم على رسول الله ﷺ ، وقالوا له إن أخبار الإسلام قد وصلتهم ، وأنهم في احتياج إلى من يفقههم أمر هذا الدين الجديد ، فأرسل معهم النبي ﷺ عشرة من خير الفقهاء وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فلما انطلقوا معهم ، غدروا بهم ، وقتلوهم أجمعين [(٢)] .

(ح) أخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رعلا وذكوان ، وعصية ، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا ببئر معونة ، قتلوهم وغدروا بهم » [(٣)] .

(ط) معلوم - كما سيأتي قريبا إن شاء الله - أن سبب جمع أبي بكر للقرآن كتابة في عهده هو الخوف من ذهاب القراء في المعارك ، بعد وقعة اليمامة مع مسيلمة

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١/٥٧ .

(٢) البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع .

(٣) البخاري : في نفس الموضع السابق .

الكذاب ، حيث علل عمر ذلك بقوله : « إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن . وإني أرى أ ، تأمر بجمع القرآن »[1] .

فعمر نفسه يعترف بكثرة القتلى من القراء في معركة واحدة ، حيث بلغ عددهم إلى سبعين قارئا ، بل نص بعضهم على أنهم كانوا سبعمائة .

قال ابن حجر تعقيبا على قول عمر : « فيذهب كثير من القرآن : وهذا يدل على قول عمر : فيذهب كثير من القرآن : وهذا يدل على أن كثيرا ممن قتل في وقعة اليمامة كان قد حفظ القرآن »[2] .

(ي) روي ابن داود من طريق محمد بن كعب القرظي ، قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار : معاذ ابن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري » . قال عنه ابن حجر : « وإسناده حسن مع إرساله ، وهو شاهد جيد لحديث عبد الله بن المثنى »[3] .

(ك) قال بن حجر :

وأخرج ابن أبي داود أيضا من طريق الشعبي ، قال : « جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ستة : منهم أبو الدرداء ومعاذ وأبو زيد وزيد بن ثابت » .

ثم قال عنه أبو حجر " وإسناده صحيح ، مع إرساله »[4] .

فهذه الأحاديث والآثار وغيرها تدل بكل وضوح ، وبما لا يدع مجالا للشك ، على كثرة قراء القرآن ، كثرة تحقق له تواتره من أقرب طريق ويرد على أولئك الأفاكين الخراصين شبهتهم ، في أن عدد الصحابة الذين حفظوا القرآن في عهده ﷺ لم يتجاوز

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٢٩ .

(٣) المصدر السابق : ٨/ ٦٧٠ .

(٤) فتح الباري : ٨/ ٦٧٠ .

أربعة أشخاص .

بل إننا لنجزم بكل يقين بأن تلك الأحاديث التي تدل على كثرة القراء من الصحابة ، لا تمثل في الواقع إلا قليلا من كثير ، لعدم الاعتناء بإحصائية للحفاظ لاستغنائهم عنها ، حيث بلغت كثرتهم مبلغا ، اشتهر في الآفاق ، وطار في القرى والأمصار .

قال القاضي أبو بكر في كتابه الانتصار للقرآن ، بعد أن أورد عدة روايات تفيد كثرة الحفاظ من الصحابة ، والذين قتلوا في حرب اليمامة .

« ومن تأمل مجيء هذه الأخبار وألفاظها ، علم وتيقن أن أمر القرآن كان بينهم ظاهرا منتشرا ، وأن حفاظه آن ذال كانوا في الأمة عددا عظيما ، وخلقا كثيرا »[1] قد يسأل متسائل ويقول :

إذا سلمنا لهم بكثرة الحفاظ من الصحابة ، طبقا لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في ثبوت التواتر للقرآن ، فما تقولون في حديثي أنس ، خاصة أن أحدهما جاء بصيغة الحصر ، وهو الذي قال فيه : (لم يجمع القرآن غير أربعة) ؟

وللجواب عن هذه الشبهة نقول :

١ - لا يمكننا الأخذ بظاهر كل من الحديثين معا ، لتعارضهما من جهتين :

الأولى : أن أحدهما يفيد الحصر في أربعة أشخاص فقط ، والآخر لا يدل على الحصر .

الثانية : أن أحدهما ، والذي ورد بصيغة الحصر لم يذكر فيه أبي بن كعب ، وإنما ذكر بدلا منه أبو الدرداء ، أما الثاني فقد ذكر فيه أبي ولم يذكر فيه أبو الدرداء .

وعلى هذا يكون أنس قد جزم في حديث الحصر بأن أبيا لم يجمع القرآن ، وجزم في

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة : ٦٣ .

الحديث الآخر بأنه جمعه ، وذلك تناقض واضح .

٢ - إذا لم يمكننا الأخذ بظاهر كل من الحديثين معا ، حتى وأن وردا في الصحيحين ، وأما أن يؤولا تأويلا صحيحاً بما يتفق مع الجزم بتواتر القرآن ، واشتهار كثرة قرائه بما لا يحصى عددا .

٣- وقد ذهب بعض العلماء إلى رد الحديثين معا ، وعدم الأخذ بهما ، لاضطرابهما ، ولمخالفتهما الواقع .

قال الشيخ غزلان : « وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه ينبغي رد هذين الحديثين من أصلهما ، وعدم الإلتفات إليهما ، وإن وردا في الصحيح ، لما في تأويلهما من التكلف ، ولأنهما من كلام أنس نفسه ، وقد اضطرب فيه ، والكلام المضطرب لا يقبل .

فقد ذكر القسطلاني طائفة من هذه التأويلات ، ثم عد القراء من الصحابة كما ذكرهم أبو عبيد ، ثم قال : » وبالجملة فيتعذر ضبطهم على ما لا يخفى ، ولا يتمسك بما في هذين الحديثين ، لما ذكرناه ، وكيف يكون ذلك مع ما ورد من قتل القراء ببئر معونة ، ويوم اليمامة ، لاشيما مع ما في هذه الأحاديث من الاضطراب في العدد ، والنفي والإطلاق ، وليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ[1] .

٤- فمن حق الإنسان إذا أن يرد ظاهر هذين الحديثين لاضطرابهما ، ومخالفتهما واقع صحابة الرسول ﷺ ، ولأنهما من كلام أنس نفسه ، وليس من كلام الرسول ﷺ .

٥- وإذا أردنا أن نجمع بينهما ونأخذ بهما ، ولا نردهما لأنهما في صحيح البخاري ، فإننا يقول : إن الحصر الوارد في أحدهما ، لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون حصرا حقيقيا ، وإما أن يكون حصرا إضافيا .

فإن كان حصرا إضافيا ، فلا يطعن ذلك في تواتر القرآن ، وللعلماء في توجيه هذا الحصر الإضافي أكثر من توجيه ، بعضهما وجيه حسن ، وبعضها متكلف ظاهر .

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن للشيخ غزلان : ١٥٥ ، وهدى الساري ٧ / ٤٥٨ .

ونحن هنا نقتصر على ما هو وجيه حسن في نظرنا ، فنقول :

(أ) إن أنسا ﷺ حينما ذكر هؤلاء الأربعة ، مقارنا بينهم وبين غيرهم ، لم تكن مقارنته بلك مقارنة مطلقة ، أي بين الأربعة من جهة ، وباقي الأمة كلها من جهة أخرى ، ولكنها كانت مقارنة محدودة بينهم وبين جماعة معينة ، تعلق بهم دهنه لغرض معين ، وقت الكلام ، ولذلك ذكر في أحد الحديثين أبا الدرداء ، وفي الآخر أبي بن كعب بدلا منه .

وذلك كما يصر أحد الأشخاص على أن يكون عشاؤه حلوى مثلا ، فيقول لا آكل هذه الليلة إلا حلوى ، فحصره هنا ليس حقيقيا ، بدليل أن الحلوى لو قدمت له ومعها غيرها لأكل من الجميع .

وهذا كما وجه الشافعي رحمه الله الحصر الموجود في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ .. الآية [(١)] .

حيث كانوا يحرمون ما أحل الله ، ويحلون ما حرم الله ، فكأن الله قال لهم بهذا الحصر : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، فهو حصر إضافي ، لا حقيقي .

يقول الكرماني : « لعل السامع كان يعتقد أن هؤلاء الأربعة لم يجمعوا ، وكان أبو الدرداء ممن جمع ، فقال أنس ذلك ردا عليه ، وأتى بصيغة الحصر ادعاء ومبالغة ، ولا يلزم منه النفي عن غيرهم بطريق الحقيقة ، والله أعلم » [(٢)] .

ويقول الشيخ محمد علي سلامة : « إن أنسا ﷺ لم يقصد الحصر بالنسبة لجميع الصحابة ، بل قصده بالنسبة للحاضرين معه ، وقت هذا القول ، ويكون قد قال ذلك لغرض من الأغراض الدينية ، وقرينه الواقع – وهي أنه لم يستوعب جميع الصحابة – تؤيد ذلك ، وعلى هذا فلا تعارض بين الحديثين » [(٣)] .

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٥

(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٧٠

(٣) منهج الفرقان في علوم القرآن : ١/ ١٠٠ ، مطبعة شبرا ١٩٣٨م .

(ب) وقريب من هذا التوجيه قول ابن كثير : « ولعل مراده لم يجمع القرآن من الأنصار ، ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار »[1] .

(جـ) وقريب منهما أيضا توجيه ابن حجر ، حيث قال : « إن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط ، فلا ينفي ذلك من غير القبيلتين ، من المهاجرين ، ومن جاء بعدهم »[2] .

وقد استند ابن حجر في توجيهه هذا إلى رواية لابن جرير الطبري عن قتادة عن أنس حيث جاء فيها : « افتخر الحيان الأوس والخزوج ، فقال الأوس : منا أربعة ، من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين ، خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر ، ومن حمته الدبر[3] ، عاصم ابن ثابت ، فقال الخزرج : ما أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم » .

لكن هذا الحديث الذي استند إليه ابن حجر ، ومن تابعه من المؤلفين حديثا قد يدل على أن مراد أنس من الحصر الحصر الحقيقي ، وليس الإضافي ، حيث جاء في هذا الحديث عبارة (لم يجمعه غيرهم) هكذا على الإطلاق . إلا أن يوجه المعنى بأنه أراد لم يجمعه غيرهم منكم يا معشر الأوس .

(د) وقد يوجه هذا الحصر الإضافي بأن المراد : أنه يجمعه على جميع قراءاته ووجوهه ، إلى هؤلاء الأربعة ، فلا ينافى أن يكون غيرهم قد جمعوه كله ، ولكن على بعض الأوجه والقراءات .

(هـ) وقد يكون مقصود أنس بالجمع : الجمع كتابة ، أي أنهم جمعوه كتابة ، وحفظا عن ظهر قلب ، فلا ينافي أن يكون غيرهم قد جمعه حفظا فقط ، إذ المعول عليه هو الجمع حفظا ، لا الجمع كتابة .

---

(١) فضائل القرآن : ٢٨

(٢) فتح الباري : ٦٦٩/٨ .

(٣) الدبر : جماعة النحل .

قال ابن الجزري : « ثم أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على حفظ المصاحف والكتب » [١] .

وقال القسطلاني في لطائف الإشارات : « الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط » [٢] .

(و) وقد يكون مرد أنس : أنه لم يأخذ كل القرآن من فمه ﷺ مباشرة ، إلا هؤلاء الأربعة ، حيث كان الأخذ من الفم الشريف اعتزازا عظيما لهم ، وشرفا جليلا ، يتباهون به فيما بينهم .

يقول عبد الله بن مسعود فيما يرويه البخاري عنه : « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة » [٣] قال القاضي أبو بكر بن الطيب : « يحتمل أنه لم يجمع القرآن ، وأخذه تلقينا من في رسول الله ﷺ ، غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه ، وبعضه عن غيره » [٤] .

٦ - أما لو ذهبنا مع حديث الحصر في أربعة ، إلى أبعد مدى ، وقلنا إن مراد أنس هو الحصر الحقيقي ، فإن ذلك أيضا لا يترتب عليه الطعن في تواتر القرآن لما يلي :

أولا : لأن هذا كان من اعتقاد أنس ، المخالف للواقع ، الذي يرد عليه اعتقاده هذا ، بدليل تلك الروايات الكثيرة ، الدالة على أن الواقع كان مليئا بكثرة الحفاظ ، تلك الروايات التي يعقب عليها القاضي أبو بكر بقوله : « ومن تأمل مجيء هذه الأخبار وألفاظها ، علم وتيقن أن أمر القرآن كان بينهم ظاهرا منتشرا وأن حفاظه إذ ذاك كانوا في الأمة عددا عظيما ، وخلقا كثيرا » [٥] .

ويصفها بدر العيني أيضا بقوله : « وقد ظهر من هذا أن الذين جمعوا القرآن على

---

(١) النشر : ٦ .

(٢) لطائف الاشارات : ٦٤ .

(٣) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي .

(٤) تفسير القرطبي : ٦٣ .

(٥) عن المرشد الوجيز : ٦٣ .

عهده ﷺ لا يحصيهم أحد ، ولا يضبطهم عدد »[1].

وإذا كان هذا من اعتقاد أنس ، وهو اعتقاد مخالف للواقع فالواجب ترك قوله ، والأخذ بما هو واقع في نفس الأمر .

ثانيا : ومما يدل على أن هذا من اعتقاد أنس نفسه ، وعلى حسب ما وقع في علمه هو ، أنه ما قابل جميع الصحابة فردا فردا وسألهم عن جمعهم للقرآن ، وأخبره كل فرد بأنه لم يجمعه .

لم يفعل ذلك أنس ، بل لم يكن ذلك في مقدوره ، لكثرة الصحابة ، من ناحية ، ولتفوقهم في القرى والأمصار من ناحية أخرى .

قال المازري فيما ينقله عنه ابن حجر :

« لا يلزم من قول أنس (لم يجمعه غيرهم) أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة ، وتفرقهم في البلاد ، وهذا لا يتم إلا أن كان لقي كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ ، وهذا في غاية البعد في العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك »[2].

ويقول الشيخ غزلان مقررا هذا المعنى ، ومؤكدا له :

« على أن أنسا قد يكون مراده من حصر جمع القرآن في هؤلاء الأربعة ، أن ذلك بالنظر إلى علمه ، لا بالنظر إلى الواقع ، أي أنه لا يعلم أن أحدا سوى هؤلاء الأربعة جمعه ، وعلى فرض أنه يريد الحصر في الواقع فقد يكون مخطئا في اعتقاده »[3].

ثالثا : لو قلنا إن المراد بالحصر في أربعة فقط الحصر الحقيقي ، فإن هذا أيضا لا يخل بتواتر القرآن .

---

(١) عملة القارئ : ١٦/ ٢٠٩

(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٦٩

(٣) البيان في مباحث علوم القرآن : ١٥٣ .

لأنه لا يشترط في تواتره أن يحفظ من أوله إلى آخره عدد يحصل به التواتر ، بل لو حفظ كل سورة منه أو جزءا منها عدد يحصل به التواتر لكفى ، حتى لو لم يحفظ هذا العدد غير تلك السورة ، وغير ذلك الجزء .

يقول القاضي أبو بكر : - كما جاء في عمدة القارئ - : « ليس من شروط التواتر أن ينقل جميعهم جميعه ، بل لو حفظ كل جزء منه عدد التواتر لصار الجميع متواترا ، وقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون » [١] .

ويؤكد المازري هذا المعنى ، فيقول كما جاء في فتح الباري :

« ليس من شروط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكل الكل ، ولو على التوزيع كفى » [٢] .

وبهذا السهم القاتل لهذه الشبهة يسدد الإمام النووي في نحرها فيقول : « لو ثبت أنه لم يجمعه إلا أربعة لم يقدح في تواتره ، فإن أجزاءه حفظ كل جزء منها خلائق لا يحصون ، يحصل التواتر ببعضهم ، وليس من شرط التواتر أن ينقل جميعهم جميعه ، بل إذا نقل كل جزء عدد التواتر صارت الجملة متواترة بلا شك ، ولم يخالف في هذا مسلم ولا ملحد » [٣] .

وعلى هذا يتبين أن الحصر الموجود في حديث أنس سواء أكان حصرا حقيقيا أم إضافيا لا يدل على عدم تواتر القرآن الكريم في عهده ﷺ .

(حديث أنس خاص بالعهد النبوي)

٦- ثم أن حديث أنس كما هو ظاهر ، لا يعدو العهد النبوي المبارك فإن الآلاف المؤلفة من الصحابة قد أكملوا ما لم يكمل حفظه في حياته ﷺ ، ولكن لم ينقل إلينا أسماءهم لعدم اتصال أسانيدهم بنا .

---

(١) عمدة القارئ : ١٦/٢٠٩ .

(٢) فتح الباري : ٨/٦٦٩ .

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ك١٦/٢٠ .

٧- قال الحافظ الذهبي فيما ينقله عنه الزركشي من كتاب (معرفة القراء) له : «« وأما من جمعه منهم ، ولم يتصل بنا فكثير »» [(١)]

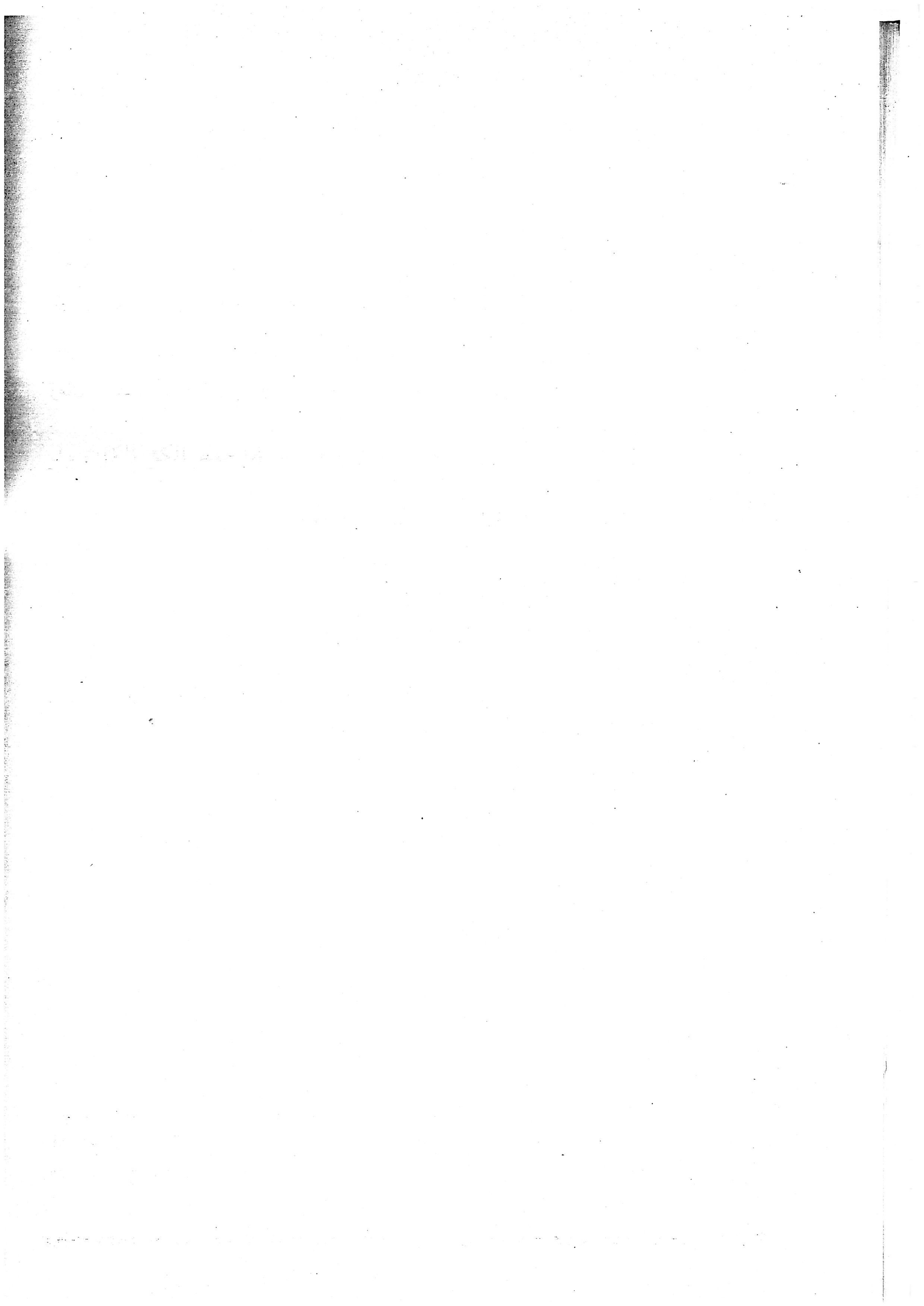
وحينما انتشر الإسلام بعد العهد النبوي المبارك ، بفتح البلدان ، واستبحار العمران ، ودخول الأقطار الكثيرة تحت لواء القرآن الكريم ، كثر حفاظه كثرة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، بحيث كان الحفاظ في القطر الواحد يفوق بمراحل العدد الذي يحصل به التواتر ، ولا زال الحفاظ للقرآن يكثرون جيلا بعد جيلا ليتحقق للقرآن التواتر في كل زمان ، تحقيقا لوعد الله عز وجل «« إنا نحن أنزلنا الذكر وأنا له لحافظون »» [(٢)] .



---

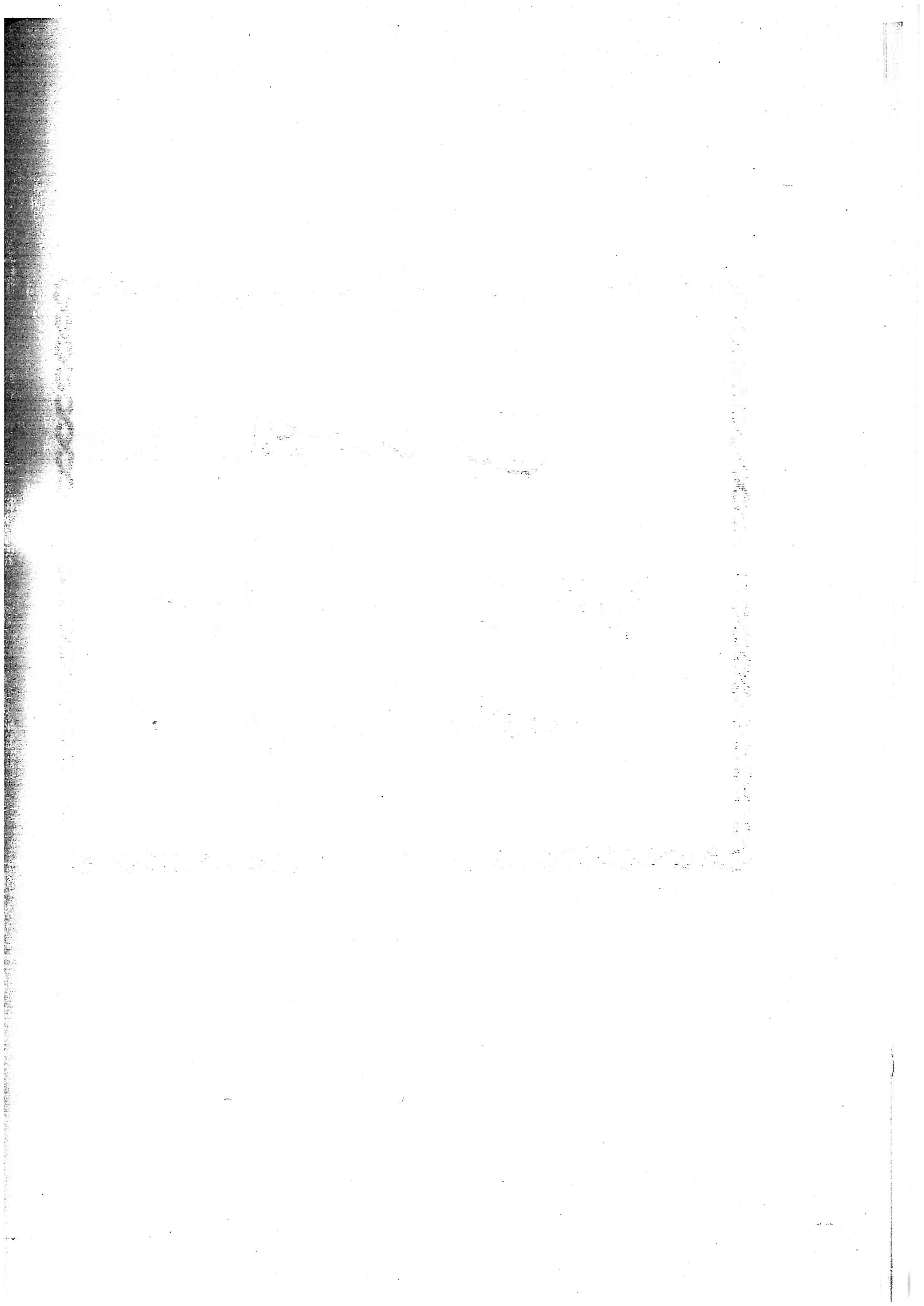
(١) البرهان : ١ / ٢٤٢ .

(٢) سورة الحجز : آية٩ .



الفصل الرابع

جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد البكري



جمع الصحابة القرآن كتابة
في العهد البكري

وكما جمع صحابة رسول الله ﷺ القرآن حفظا ، جمعوه كتابة ، بدليل قوله ﷺ :
« لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه »[1]

وكان النهي عن كتابة غير القرآن في أول الأمر ، حتى لا يلتبس بالقرآن .

فهذا الحديث ينص صراحة على أنهم كانوا يجمعون القرآن كتابة ، وقد عرف ذلك عنهم واشتهر ، ولم يخف على من له أدنى اطلاع على الثقافة القرآنية ، ولو كان غير مسلم ، وكان لبعضهم مصاحف خاصة ، اشتهر ذكرها في الأوساط القرآنية .

ونحن حينما نتعرض لجمعهم ﷺ ، فإننا لا نتحدث عن الجمع الفردي لكل منهم ، حيث لم يأخذ هذا الجمع الفردي صفة الإجماع من الأمة كلها ، فربما كان في مصاحف بعضهم ما هو منسوخ التلاوة ، وتركه لعدم علمه بالنسخ ، وربما كان فيها بعض العبارات التفسيرية ، وربما فات صاحبها ـ لظروف خاصة ـ كتابة بعض الآيات ، ولذلك فإن هذه المصاحف الخاصة لم تأخذ صفة الإجماع من الأمة ، كما لم تكتسب صفة التواتر .

وإنما الذي يعنينا في هذا المقام جمعان أخذا صفة الإجماع ، من كل الأمة ، كما كان لهما عظيم الأثر في تاريخها ، حيث حفظ الله بهما كتابة من الضياع ، وأمة الإسلام ، من الاختلاف فيه اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم ، بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى منه .

هذان الجمعان حدثا في عهدي الخليفتين الراشدين ، أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب (٧٢)

جمع أبي بكر :

في العام العاشر الهجري انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق العلى ، بعد أن أدى مهمته في الوجود ، من تبليغ رسالة ربه إلى الأمة ، وتركها دولة فتية ، قد وطدت أقدامها في الأرض أيما توطيد ، ورفعت هامتها بين كل الأمم حتى صارت أعلاها وأشرفها وأقواها .

وإذا بقدر الله عز وجل لهذه الأمة الرشيدة أن يلي أمرها خير من طلعت عليه الشمس بعد العهد النبوي ، فيتولى قيادتها أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه ، فيسير السفينة كما سيرها صاحبه ونبيه من قبل ، وبينما هو مشغول بقيادة السفينة تلك ، اذا بفتنة داخلية تنفتح عليه من داخل الجزيرة ، بعد أن بدأ السير خارجها ، وكانت المهمة في داخل أصعب وأقسى منها في الخارج ، ذلك أن عدو الأمة إذا كان من داخلها ، كان أمكر وأخطر ممن هو خارج عنها .

فلقد ارتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ أناس كثيرون ، حيث تجمعوا حول كذاب أشر ، وهو مسيلمة الكذاب ، الذي ادعى النبوة .

والعجيب أن أولئك المرتدين كانوا على بينة من كذب هذا الأفاك ، خاصة بعد أن بين لهم الرسول ﷺ كذبه ، حال حياته .

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما :

« عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب ، على رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : (إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته) ، وقدمها في بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال : (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عني ، ثم انصرف عنه » (١) .

ويري البخاري بعد هذا الحديث مباشرة عن ابن عباس ، فيقول : قال ابن عباس :

---

(١) أخرجه البخاري في كتابه المغازي ، باب وفد بني حنيفة .

« فسألت عن قول رسول الله ﷺ وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت ، فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب ، فأهمني شأنها فأوحى إلي في المنام أن انفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي ، أحدهما العنسي ، صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة ، صاحب اليمامة »[1].

ويستمر الكذاب الأشر في ادعائه النبوة وبنو حنيفة مجتمعون حوله رغم يقينهم الجازم بكذبه ، إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فيظن هذا الكذاب أن الفرصة قد هيئت له من أوسع الأبواب ، فيعلن هو وبنو حنيفة التمرد على خليفة رسول الله ﷺ ، والانصياع تحت لوائه ، فلا يتردد الخليفة الراشد في إعلانها حربا شرسة ، على هذا الأفاك ومن تبعه ، رغم كثرة عددهم ، وقوة عتادهم .

ويصور لنا الحافظ ابن كثير جانبا من هذه المعركة ، التي كان خالد بن الوليد قائدها ، فيقول : « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ، ويقولون : يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم ، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض ، إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار ، بعدما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا ، حتى قتل هناك ، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : نخشى أن نؤتى من قبلك ، فقال : بئس حامل القرآن أنا إذا ، وقال زيد بن الخطاب : أيها الناس : عضوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوكم ، وامضوا قدما ، وقال : والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله ، أو ألقى الله ، فأكلمه بحجتي ، فقتل شهيدا ﷺ ، وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال . . . إلخ »[2].

ورغم أن المعركة قد انتهت بانتصار المسلمين ، والقضاء على شوكة المرتدين بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، إلا أن المسلمين قد فقدوا في هذه المعركة ، عددا كبيرا من نوعية خاصة ، هي أعظم نوعية على الإطلاق ، حيث كانوا من حفاظ القرآن الكريم .

---

(١) البخاري : كتاب المغازي ، باب : وفد بني حنيفة ومسلم : رؤيا (٢١) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير

ولقد حزن عليهم المسلمون حزنا شديدا ، خاصة عمر بن الخطاب ، الذي نظر إلى فقدهم نظرة خاصة ، فلم يحزنه فقدهم ، بقدر ما أحزنه ، غياب قلوبهم الحافظة لقرآن الله عن الوجود .

فماذا سيكون أمر هذا القرآن في المستقبل بعد انتهاء كل معركة ، وفقد عدد من القراء فيها ، لاسيما وأن المسلمين مأمورون بحمل هذا الإسلام ، وتبليغه إلى كافة الدنيا ، التي يسيطر على شعوبها الطغاة والمستبدون ، والذين لابد لهم من اصطدام هائل ، مع أهل الإسلام أهل النور ، حتى لا ينشر هذا النور ، فيستمر لهم الظلام ، الذي لولاه ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، من الزعامة الظالمة ، والثراء الفاحش واستعباد الخلق وتطويعهم لما يحبون ؟

نظر عمر خطورة الموقف على القراء ، إذا استمر هذا القتل فيهم ، دون أن يكون هناك مكتوب للمسلمين إليه يرجعون ، وفيه ، ومنه يقرءون ، ويعلمون ، فما كان منه إلا أن أبى أبا بكر ، ودار بينهما هذا الحديث ، الذي رواه البخاري وغيره :

« عن ابن شهاب عن عبيد بن السباق : « أن زيد بن ثابت ﷺ قال : أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر ابن الخطاب عنده ، قال أبوبكر ﷺ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه »[1]

كما أخرج البخاري عن ابن شهاب أيضا من طريق خارجه بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : « فقدت آية من الأحزاب ، حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف »[2]

وأخرج ابن أبي الدرداء في كتاب المصاحف ص ١٢ عن عروة عن أبيه قال : « لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر على القرآن أن يضيع ، فقال لعمر بن الخطاب ، ولزيد بن ثابت أقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

ونستطيع أن نستنتج من قصة معركة اليمامة ، ومن أحاديث جمع القرآن ، عدة أمور مهمة ، نذكر بعضا منها :

أولا : كثرة حفاظ القرآن الكريم من الصحابة :

هناك الكثرة التي تثبت للقرآن تواتره من قريب ، والتي استشهدنا في تزييف ادعاء المستشرقين ، بعدم توات القرآن في العهد النبوي ، مستندين بقول أنس : (لم يجمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ إلا) .

في هذه المعركة كان حفظ القرآن شعارهم ، الذي كانوا يتنادون به ، حيث كانوا يشجعون أنفسهم أمام شدة بأس عدوهم ، بعبارات تدل على حفظهم للقرآن . مثل قولهم : (يا أصحاب سورة البقرة) ، ومثل قول سالم مولى أبي حذيفة : (بئس حامل القرآن إنا إذاً) ، ومثل قول أبي حذيفة : (يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال) .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن

(٢) نفس الموضع السابق

ولقد بلغت كثرة الشهداء من قراء القرآن في هذه المعركة ما هال عمر بن الخطاب خشية تكرارها فيما يستقبله المسلمون من معارك قادمة .

ثانيا : الباعث على جمع القرآن الكريم كتابة في مصحف واحد :

فقد دلت أحاديث الجمع على أن الدافع لهذا الجمع هو خوف المسلمين من ضياع شئ من القرآن باستشهاد حفاظه أو موتهم ، فكتابته مجموعا في مصحف واحد فيه زيادة أمان ، مما قد يحدث في مستقبل الزمان ، ولذلك عد هذا العمل من أجل الأعمال التي نفذها الخليفة أبو بكر في مدة خلافته .

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : « كان قرار أبي بكر ـ فيما نرى ـ هو أخطر قرار أتخذه في حياته ، وأعظم الخطوات التي تمت في تاريخ هذه الأمة ، لأنه حل أساساً مشكلة أصولية ، ترتب على حلها سلامة النص القرآني من التحريف ، وهو الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الإسلامية في التاريخ ، مطمئنة إلى دستورها المنزل المحفوظ، وهو أيضا القاعدة التي اتخذت مقياسا لكل إصلاح لرسم المصحف ، أو كتابته فيما بعد ولذلك قال علي ﷺ ، فيما حدث به سفيان عن السدي عن عبد خير ، قال : سمعت عليا يقول : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين » [(١)] .

ثالثا : كما تدلنا هذه الأحاديث على أول من ألهمه الله فكرة الجمع وهو سيدنا عمر بن الخطاب ، وهذا الإلهام في هذا الموقف الخطير في تاريخ القرآن ليس بغريب عليه ، ولا علينا تجاهه .

(أ) فهو الذي قال عنه الرسول ﷺ ، فيما رواه البخاري : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر » [(٢)] .

---

(١) تاريخ القرآن ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، فضل جمع القرآن ، ط دار القلم ، ١٩٦٦ ، والأثر الذي نقله عن علي أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ، ص : ٥ .

(٢) البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر .

(ب) وهو الذي خاطبه الرسول ﷺ بقوله : « والذي نفسي بيده ، ما لقيت الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك غير فجك » [1].

(جـ) وهو الذي قال عنه ابنه عبد الله : « ما ظن عمر شيئا إلا كان كما ظن » .

(د) وهو الذي تحدث بنعمة ربه هذه عليه فيما رواه البخاري وغيره ، عن أنس قال : « قال عمر : وافقت الله في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث – قلت يا رسول الله: لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى .

وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن ، قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر : أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات » [2] الآية .

رابعا : كما يتبين من الروايات السابقة أن أبا بكر الصديق ﷺ كان أول من جمع القرآن الكريم ، بناءً على اقتراح عمر .

فلم يعرف قبل جمع أبي بكر جمع مثله ، توافر له من الصفات والمزايا التي سنتحدث عنها قريبا إن شاء الله تعالى ، والتي اكتسبت صفة الإجماع من الأمة كلها .

أخرج صاحب المقنع عن عبد خير قال : « أول من جمع القرآن بين اللوحين أبو بكر ﷺ » [3]

أما ما رواه ابن أبي داود في المصاحف ، من طريق محمد بن سيرين حيث قال : لما توفي النبي ﷺ أقسم علي ﷺ أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة ، حتى يجمع القرآن في مصحف واحد ففعل » [4] فقد قال عنه الحافظ ابن حجر : « إسناده ضعيف ، لانقطاعه » [1] .

---

(١) نفس الموضع السابق

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة .

(٣) المقنع لأبي عمرو الداني : ١٣ .

(٤) المصاحف : ١٠ .

ومما يقوي هذا الأثر ما ذكرناه سابقا من قول علي نفسه فيما رواه ابن أبي داود أيضا : « رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجرا في المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين » .

قال عنه الحافظ ابن كثير : « هذا إسناد صحيح »[2] ، وقال عنه الحافظ ابن حجر : « إسناده حسن »[3] .

أما ما جاء في إحدى الروايات ، التي تنص على أن عمر هو أول من جمع فإنه مؤول بأن عمر كان أول من خطر بباله ذلك ، وأشار على الخليفة أبي بكر به ، فحقق له أمنيته .

خامسا : تعطينا هذه المداولة التي حدثت بين عمر وأبي بكر أولا ، ثم بين أبي بكر وزيد ثانيا ، صورة واضحة لإشراك ولي الأمر أفراد الأمة معه فيما يهم تلك الأمة ، بل والنزول على رأي أحدهم ، ما دام صلاح الحال يقتضي ذلك . لقد ظن أبو بكر أن جمع القرآن كله في مصحف واحد بدعة في الدين ، فخاف أن يحدث فيه ما لم يحدثه رسول الله ﷺ ، فكيف يفعله وهو الوقاف على حدود الله تعالى ، ولذلك قال : (كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ . ؟

ولكن عمر بن الخطاب أخذ يقنعه بصواب الفكرة ، وسداد الرأي ، إذ كيف يكون الحفاظ على القرآن بدعة ؟ وكيف تكون الوسيلة لذلك أمرا محدثا في الدين ؟ والله لهو عين الحق اليقين ، بل هو الذي فعله الرسول ﷺ تماما ، إلا أن ما فعله عليه الصلاة والسلام كان مفرقا ، ولكن الذي سيفعلونه سيكون في مكان واحد .

قال المحاسبي في كتابه فهم السنن :

« كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع

---

(١) فتح الباري : ٨/٦٢٩ .
(٢) فضائل القرآن : ٨ .
(٣) فتح الباري : ٨/٦٢٩ .

والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان ، وكان ذلك بمنزلـه أوراق ، وجدت في بيت رسول الله ﷺ ، فيها القرآن منتشـر ، فجمعهـا جامع ، وربطهـا بخيط حتى لا يضيع منها شيء »[1].

فلما اقتنع أبو بكر بصواب الفكرة ، وخيريتها ، وبوجوب فعل الخـير ، كمـا قـال تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

لما اقتنع بذلك لم يتردد لحظة في الإقدام على الجمع ، وأمر به .

ولذلك قال : « فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك » .

وبنفس الاقتناع قال زيد في آخر الأمر : « لم يزل أبو بكر يراجعني حتـى شـرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما » .

قال ابن بطال فيما ينقله عنه ابن حجر : « إنما نفر أبو بكر أولا ، ثم زيد بن ثابت ثانيا ، لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله ، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطـه للدين على احتياط الرسول ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك ، وأنه خشـية أن يـتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة ، رجعا إليه .

قال : ودل ذلك على أن فعل الرسول ﷺ إذا تجرد عن القرائن ، وكذا تركه ، لا يدل على وجوب ، ولا تحريم »[3].

زاد ابن حجر على ذلك فقال : « وليس ذلك من الزيادة على احتياط الرسول ، بل هو مستمد من القواعد التي مهدها الرسول ﷺ »[4].

وقال الباقلاني : « كان الذي فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية ، بدلالة قوله ﷺ :

---

(١) البرهان : ١ / ٢٣٨

(٢) سورة الحج : آية ٧٧

(٣) فتح الباري : ٨ / ٦٣٠

(٤) الموضع السابق.

« لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن »[1].

مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾[3] ، وقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾[4].

قال : فكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، وكان ذلك من النصيحة لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم .

قال : وقد فهم عمر أن ترك النبي ﷺ جمعه ، لا دلالة فيه على المنع ، ورجع إليه أبو بكر لما رأي وجه الإصابة في ذلك ، وأنه ليس في المنقول ولا في المعقول ما ينافيه ، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه ، ثم تابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك »[5].

سادسا : يؤخذ من أحاديث جمع القرآن ، أن أبا بكر ﷺ ، لم يختر أي شخص لهذا الجمع ، وإنما اختار شخصا معينا ، توافرت فيه أعظم الصفات ، التي يتطلبها مثل هذا العمل الضخم ، والخطير ، والعظيم ، فاختار زيد بن ثابت بالذات ، لتوافر هذه الصفات مجتمعة ، وعلى أقوى ما تكون درجتها ، وهذه الصفات هي :

١ – الشباب والقوة ، والصحة والفتوة .

فالمهمة التي أسندت إله تحتاج إلى صبر وجلد ، وتحمل وطاقة ، والهزيل لمثل هذا لا يصلح ، كما أن شبابه هذا يجعله قابلا للحوار والمناقشة ، فلا يتعصب لرأيه ، ولو كان باطلا ، كما هي عادة كثير من كبار السن .

يقول محمد حسن هيكل : « ولعل أبا بكر قد اختار زيدا ، وآثره على غيره من أصحاب رسول الله ﷺ ، لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سورة القيامة : آية ١٧

(٣) سورة الأعلى : آية ١٨

(٤) سورة البينة : آية ٢ ، ٣

(٥) فتح الباري : ٨ / ٦٣٠

تعصبا لرأيه ، واعتزازا بعلمه ، وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة ، من القراء والحفاظ ، والتدقيق في الجمع ، دون إيثار لما حفظه هو »[١] .

٢ – العقل الراجح ، والذكاء المتقد ، فالرسالة التي كلف بها إن لم يتصف القائم بها بذلك ، لحدث فيها خلل ، واعتراها النقص ، وشابها الارتياب .

ويدل على رجاحة عقله مناقشته لأبي بكر في هذا الجمع ، وتردده في قبوله أول الأمر ، فلم يقبله إلا بعد مناقشة واقتناع ، وليس عن ضغط وإفزاع ، ولم يفعل ما فعل إلا عن دليل وحسن اختيار ، لا عن تقليد وضغط وإضرار .

كما يدل على ذكائه المتقد ما أخرجه الترمذي ، وأبو داود واللفظ له عن زيد بن ثابت قال : « أمرني رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهود - وفي رواية للترمذي : أن أتعلم السريانية - وقال : « إني والله ما آمن يهود على كتابي » فتعلمته ، فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إذا كتب ، وأقرأ له إذا كتب إليه »[٢] .

ويشهد لتوافر هاتين الصفتين - الشباب والعقل - في زيد ، قول أبي بكر له : « إنك رجل شاب عاقل » .

٣ – الأمانة الكاملة ، التي يقتضيها كتاب الله تعالى ، بحيث لا يكون هناك أدنى مجال لارتياب مرتاب ، أو لتشكيك مشكك .

وقد شهد أبو بكر لأمانته ، وهو يحثه على هذا الجمع قائلا : « لا نتهمك » وقد استشعر هو خطورتها وضخامتها ، حيث قال : « فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن » .

وعن تقدير زيد نفسه لأمانة وخطورة وضخامة ما كلف به يقول الأستاذ محمد حسين هيكل : « وكيف لا يشعر بجسامة التبعة ، وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ،

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٢١
(٢) الترمذي : كتاب الاستئذان ، باب ما جاء ف تعليم السريانية ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب .

وعمر يحفظه ، وعلي يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه ، أو يحفظون منه أجزاء كثيرة ، بل إن أربعة قد تلقوا القرآن ، عن رسول الله ﷺ وكتبوه مرتب الآيات في السور ، وكتب غيرهم ومنهم عبد الله بن مسعود مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعا رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب ، والرقابة الكبرى - رقابة صاحب القرآن ، من أوحاه إلى رسوله - أعظم من كل رقابة ، وهي التي جعلت زيدا يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه .

وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه في جميع كلامه جل شأنه هو الذي سما به ليقدر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ، ويستهين بكل مشقة ، وألا يدخر وسعا ، في جمع كل ما سطر القرآن فيه من الرقاع والأكتاف واللخاف والعسب ، ومن صدور الرجال ، وفي موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو ، عن رسول الله ﷺ ، في السنة الأخيرة من حياته والوصول من الجمع إلى الغاية التي يبتغيها خليفة رسول الله ، والتي ترضى الله ورسوله .

بذلك صار هذا المصحف المجموع إماما ، استراح إليه المسلمون »[١].

٤ - ومن الصفات التي رجحت كفة زيد في جمع القرآن : التجربة العملية ، والممارسة الميدانية ، التي باشرها زيد في هذا المجال من قبل . فلم يكن زيد غريبا عن هذا المجال ، أو دخيلا على هذا الميدان ، فلقد باشره عمليا بأمر وأمام من نزل عليه القرآن ﷺ ، عقب نزول جبريل عليه السلام بكل آية من القرآن .

ولذلك حثه أبو بكر على قبول هذا التكليف بقوله : « كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ » .

قال أبو شامة : « قال أبو عبد الرحمن السلمي : قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ ، في العام الذي توفاه الله فيه مرتين ، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت : لأنه كتبها لرسول الله ﷺ ، وقرأها عليه ، وشهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٢١ ، ط النهضة

بها حتى مات ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه ، وولاه عثمان كتب المصاحف ﷺ أجمعين »[1].

ويعلق ابن حجر على قول أبي بكر لزيد رضي الله عنهما « إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ بقوله : « ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك ، كونه شابا ، فيكون أنشط لما يطلب منه ، وكونه عاقلا ، فيكون أوعى له ، وكونه لا يتهم ، فتركن النفس إليه ، وكونه كان يكتب الوحي ، فيكون أكثر ممارسة له ، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره ، لكن مفرقة »[2].

وهكذا تبدو دقة اختيار أبي بكر لمن يجمع كتاب الله عز وجل .

سابعا : كما يؤخذ من أحاديث الجمع أيضا أن زيد بن ثابت وإن كان قد تولى الجهد الأكبر في هذا الجمع ، إلا أنه لم يتفرد به ، بل شاركه فيه جميع أفراد الأمة ، ابتداء من خليفتها ، وانتهاء بكل من كان معه أي شيء من القرآن ، ولو كان آية واحدة ، كما حدث حينما افتقدوا كتابة آية واحدة من سورة الأحزاب .

قال ابن حجر : « ووقع في رواية سفيان بن عيينة : « فقال أبو بكر : إما إذا عزمت على هذا فأرسل إلى زيد بن ثابت فادعه ، فإنه كان شابا حدثا نقيا ، يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فأرسل إليه ، فادعه حتى يجمعه معنا »[3].

فقوله « حتى يجمعه معنا » دليل على عدم انفراده بهذا الجمع بل هو مشارك فيه مع جميع الأمة ، وإن كان قد ألقي علي عاتقه العبء الأكبر .

وأخرج أبو سهل الأنماري بإسناده أن أبا بكر قال لزيد : « وسأجعل معك رجلا ، إبان بن سعيد بن العاص ، الأموي الأكبر فإنه فتى من قريش فصيح ، إلى أن قال

---

(١) المرشد الوجيز ٦٩

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٠

(٣) فتح الباري ١/ ٦٣٠

أبو بكر : فإن أشكل عليكما شيء فارفعاه إلي ، لأكون معكما فيه »[1].

كما أخرج ابن أبي داود بإسناده عن أبي العالية ، أنه قال : « إنهم جمعوا القرآن في مصحف ، في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويملي عليهم أبي بن كعب » .

فهذه الأحاديث والآثار وغيرها تدل على أن زيدا لم ينفرد بجمع هذا القرآن ، لأنه عمل لا يقوم به فرد ، بل ولا جماعة ، وإنما يحتاج إلى تكاتف الأمة كلها ، وتفريغ الأوقات من الحفاظ والمتقنين ، وكل من يستطيع أية مساهمة في ذلك ، وبالفعل فعلوا ، وبالنية أخلصوا ، وبتوفيق الله عز وجل تم لهم ما أرادوا ، بل ما أراد الله لكتابه ، من الحفظ في الصدور ، والخلود في السطور .

كيف جمع زيد القرآن ؟

حينما اقتنع الخليفة الأول أبو بكر ، بما رآه عمر ، واقتنع زيد أيضا بذلك ، أمر الخليفة كلا من زيد وعمر بضرورة كتابة القرآن ، على أدق الأوجه ، وعلى أسلم أصول البحث والتحري .

فمع أن كلا من هؤلاء الثلاثة كان يحفظ القرآن كله ، ومع أن كلا منهم كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، إلا أنهم رأوا أن يشركوا الأمة معهم في هذا العمل الجليل الخطير .

فلم يكتف هؤلاء الثلاثة بما حفظوه في صدورهم ، بل : ولا بما تحفظه صدور الأمة كلها ، ولو أرادوا جمعه من الصدور فقط فما كان أيسرها من مهمة ، فقد كان في مكنة واحد منهم فقط القيام بذلك ، وليسو بحاجة إلى مئات الحفاظ الذي لا يحصون .

ولم يكتفوا بما هو مدون فقط ، حتى ولو كانوا هم الذين دونوه بأيديهم أمام الرسول ﷺ ، بل رأوا ـ مبالغة في إكرام كتاب الله تعلى ـ أن يتبعوا أفضل وأعلى طرق التثبت والاحتياط ، وذلك بأن يعتمدوا على المصدرين معا ، أي على المحفوظ في الصدور ، والمكتوب في السطور ! !

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ٢١

دليل اعتمادهم على المصدرين معا

ولقد تضافرت الأدلة في ذلك وتعددت فمنها :

١ – ما صرح به زيد نفسه ، حينما قال : « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال » .

فقوله « من العسب واللخاف » دليل على المكتوب ، وقوله « وصدور الرجال » دليل على المحفوظ .

٢ – قال السيوطي وهو يتحدث عن جمع أبي بكر : « وفي مغازي موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : لما أصيب المسلمون باليمامة فزع أبو بكر ، وخاف أن يذهب من القرآن طائفة ، فأقبل الناس بما كان معهم ، وعندهم ، حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق (أي في الجلود الرقاق) فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف »[1] .

فقوله « فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم » يفيد اشتراك الأمة جميعها في هذا العمل بالمحفوظ والمكتوب ، لأهميته وخطورته .

فأن قوله « فأقبل الناس » يدل على اشتراك الأمة كلها ، وقوله « بما كان معهم » يدل على إتيانهم بالمحفوظ ، وقوله « وعندهم » يدل على إتيانهم بالمكتوب .

فكان ذلك منهم مبالغة في الدقة والاحتياط ، وزيادة في التوثيق للقرآن ، حتى ينزهوه عن أدنى ارتياب .

مبالغة على مبالغة

وإمعانا في زيادة المبالغة في إثبات كل ما هو قرآن باق ، وتجريد هذا الجمع من كل ما ليس بقرآن ، أمر الخليفة الأول كلا من زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب بالجلوس على المسجد النبوي ، حتى يكونا في مكان علم ، يرده كل مسلم ، وأن يطلبا إلى الناس أن

---

(١) الإتقان ١/٥٩

يجيئوا بكل ما معهم وعندهم ، بشرط أن يأتي كل إنسان بشاهدي عدل ، يشهدان على أن ما جاء به إليهما ، قد كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف بإسناده أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا في المصاحف ، بإسناده عن يحيى بن عبد الرحمن بن خاطب قال : « قام عمر فقال : من كان تلقئ من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأتنا به ، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب ، قال : وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان »[(1)] .

فهذان الأثران يدلان على أن زيدا وعمر لم يكتفيا بما سمعته آذانهم من رسول الله ﷺ ، ولا بما كتبت يداهما وقت نزول الوحي ، ولا بما حفظ قلبهما لكنهم أرادوا مشاركة الأمة كلها ، بما معهم من محفوظ في صدورهم ، وبما عندهم من مكتوب في سطورهم ، بل لم يقبلوا هذا المكتوب إلا بعد أن يأتي صاحبه بشاهدي عدل يشهدان بأنه كتب بين يدي الرسول ﷺ .

إنها لدقة ما بعدها دقة ، دقة بلغت القمة ، وسمت إلى الذروة ، وتناهت إلى الغاية التي ما بعدها غاية .

يقول الأستاذ محمد حسين هيكل : « أية طريقة اتبع زيد في الجمع ؟ نستطيع أن نقول في غير تردد » إنه اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة ، في عصرنا الحاضر .

وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة ، فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يجيء به إلى زيد وإلى كل من يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه ، واجتمع لزيد من الرقاع والعظام ، وجريد النخل ، ورقيق الحجارة ، وكل ما كتب رسول الله القرآن عليه الشيء الكثير ، عند ذلك جعل يرتبه ، ويوزنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها ، كما أوحيت إلى رسول الله .

---

(1) المصاحف لابن أبي داود ١٠ .

إلى أن يقول هيكل : « وقد كانت هذه الدقة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله ، جل شأنه ، فكل تهاون في أمره ، أو إغفال للدقة في جمعه وزر ، ما كان أحرص زيدا في حسن إسلامه ، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه .

ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعا بهذه الدقة ، حتى ليقول سير وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ، ظل إثنى عشر قرنا كاملا ، بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »[1] .

شبهة معكوسة

إن بعض الحاقدين على الإسلام وقرآنه ، قد يلبسون الأمر على بعض الجهلة من أتباع هذا الدين ومغفليهم ، من خلال الأثرين اللذين ذكرناهما قريبا ، والخاصين بشهادة الشاهدين أمام زيد وعمر على أن المكتوب يأتي به شخص ما قد كتب بين يدي الرسول ﷺ .

قد يلبس هؤلاء الحاقدون الأمر على جهلة المسلمين ومغفليهم ويقولون لهم : كيف يقبل القرآن برواية شخص واحد ، ومعه اثنان فقط يؤيدانه ، وأنتم تقولون بوجوب تواتر كل آية من آياته ؟

إن الطبقة الأولى التي جاء القرآن من خلالها لا تزيد عن ثلاثة أشخاص .

فالقرآن إذا غير موثوق بصحته ، لفقده التواتر ، خاصة أن هذا الفقدان قد حدث في الحلقة الأولى من حلقات سلسلة تأريخ القرآن .

ونجيب عن هذه الشبهة فنقول :

إن هذه شبهة معكوسة ، فقد كان المفروض أن يزيد هذان الأثران من الأدلة التي تثبت للقرآن تواتره وسلامته ، لا أن تطعن في تواتره ، أو تقدح في سلامته ، ويظهر ذلك من عدة أوجه ، ولكننا قبل أن نبين هذه الأوجه ، نحب أن نذكر كلمة عن درجة هذين الأثرين .

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

١ - لقد حكم العلماء على سند أحدهما بالضعف لانقطاعه[1] ، أما الآخر فالله أعلم بمدى صحته أو ضعفه .

ومم هو معلوم لدى الجميع أن القرآن قد نقل جميعه نقلا متواترا . فلا يجوز لنا أن نرد هذا التواتر بأثر ضعيف منقطع ، أو حتى بأثر صحيح لا يرقى إلى درجة القرب من التواتر ، فلا يرفض ما ثبت باليقين الجازم ، بما لم يصل إلى درجة الثبوت بالظن .

وإذا كنا قد استشهدنا بهما سابقا ، فإنما فعلنا ذلك لا لنثبت قرآنية القرآن بثلاثة أشخاص ، وإنما للاستئناس بهما على مبالغة الصحابة في الدقة والتحري للقرآن .

٢ - ثم أننا لو سلمنا بصحة هذين الأثرين ، بل لو افترضنا تواترهما - وهذا ليس بشبه شبه صحيح على الإطلاق - فإنهما أيضا لا يطعنان في تواتر القرآن ! !

لأن المراد بشهادة ثابتة متواترة ن بحفظ مئات الحفاظ ، فلا حاجة إلى إثبات القرآنية بالمكتوب الذي يأتي به شخص ما ، بل ولا إلى حفظه هو فقط .

وإنما كانت الشهادة على أن هذا المكتوب قد كتب بين يدي النبي ﷺ ، لأن بعض الصحابة كانت لهم مصاحف خاصة ، يكتبونها في بيوتهم ، دون أ ، يتقيدوا بكتابتها أمام الرسول ﷺ .

قال الإمام السخاوي ، وهو يتحدث عن أبي بن كعب ، الذي اشترك مع زيد بن ثابت في جمع القرآن في خلافة أبي بكر :

« أن أبيا رحمه الله إنما كان يتتبع ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ في اللخاف والأكتاف والعسب ونحو ذلك ، لا لأن القرآن العزيز كان معدوما »[2] .

ويوضح السخاوي معنى هذين الأثرين فيقول : « والمعنى والله أعلم : من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله ، الذي كتب بين يدي رسول الله ، وإلا فقد كان زيد جامعا للقرآن .

---

(١) انظر فتح الباري ٨ / ٦٣١ .

(٢) جمال القرء للسخاوي ١ /٨٧ ، مكتبة التراث بمكة المكرمة .

ويجوز أن يكون معناه : من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله ، اي من الوجوه السبعة ، التي نزل بها القرآن ، ولم يرد على شيء مما لم يقرأ أصلا ، ولم يعلم بوجه آخر »[١] .

ويوضح أبو شامة كلام الإمام السخاوي فيقول : « إنما كان قصدهم أن ينقلوا من عين المكتوب ، بين يدي النبي ﷺ ، ولم يكتبوا من حفظهم لأن قراءتهم مختلفة ، لما أبيح لهم من قراءة القرآن على سبعة أحرف »[٢] .

ويوضح أبو شامة المراد من الشهادة ، مؤيدا كلامه بالدليل فيقول : « لم تكن البينة على أصل القرآن ، فقد كان معلوما لهم كما ذكر ، وإنما كانت على ما أحضروه من الرقاع المكتوبة ، فطلب البينة عليها أنها كانت كتبت بين يدي رسول الله ﷺ ، وبإذنه على ما سمع من لفظه ، على ما سبق بيانه ، ولهذا قال فليمل سعيد ، يعني من الرقاع التي أحضرت ، ولو كانوا كتبوا من حفظهم لم يحتج زيد فيما كتبه إلى من يمليه عليه »[٣] .

٣ - ومما يدل على أن هذين الأثرين - لو صحا - لا يطعنان في تواتر القرآن : أنه من المعلوم أن المعول عليه في نقل القرآن وتواتره ، هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور .

ومعلوم أن عدد الحفاظ من الصحابة - كما سبق توضيحه - قد بلغ من الكثرة ، ما يتحقق بجزء يسير منهم تواتر القرآن الكريم ، وسلامته من أدنى شبهة .

وعلى ذلك : : فلو افترضنا أن زيدا ومن عاونه في الجمع ، قبلوا بعض القرآن كتابة من شخص واحد ، ومعه شاهدان ، فإن ذلك لا يقدح في تواتر القرآن ، بل لو أن زيدا كتبه بنفسه ، ولم يعنه أحد ، ما كان ذلك قادحا في تواتره ، ما دام جاء متفقا مع ما تحفظه الأمة في صدورها من قرآن .

بل لو لم يكتب القرآن كله من الأساس ما ضر ذلك تواتره في شيء ، لأن عدد الحفاظ بلغوا

---

(١) المصدر السابق ١ / ٨٦ .

(٢) المرشد الوجيز ٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٥٩ ، ٦٠ .

من الكثرة ما لا يحصيه عدد ، ولا يحصره ضبط ، وإنما عمد الصحابة إلى كتابته خشية ضياع شيء من صدور الحفاظ لو استمر عدد الشهداء منهم في الارتفاع ، فيما يستقبلونه من معارك ، كانوا يتهافتون عليها تهافت الفراش على النار ، كما جاء في الروايات ، فاتخذوا كافة الاحتياط مبالغة في التحري لهذا القرآن ، فأرادوا أن يجمعوه في السطور ، كما سبق أن جمعوه في الصدور .

آخر التوبة ، وآية الأحزاب

جاء في الأحاديث جمع القرآن في العهدين البكري والعثماني أن زيد بن ثابت افتقد أثناء الجمع الآيتين من آخر سورة التوبة ، فلم يجدهما إلا مع أبي خزيمة ، كما افتقد آية من سورة الأحزاب (من المؤمنين رجال) فلم يجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ولنا حول هذه الآيات وقفتان عند نقطتين :

١ - النقطة الأولى : أن بعض الرواة ومصنفي الأحاديث ينكرون جديه زيد بن ثابت ، في فقده آية الأحزاب بعد جمع عثمان ، فهل فقده إياها كان في الجمع العثماني أو كان قبل ذلك في الجمع البكري ؟

٢ - النقطة الثانية : هل يعتبر عثور زيد بن ثابت على الآيتين من آخر التوبة عند أبي خزيمة فقط ، وعلى آية الأحزاب عند خزيمة ابن ثابت فقط طعنا في تواتر هذه الآيات ؟

أما النقطة الأولى

فلم أجد أحدا من المتقدمين أو المتأخرين ، من أوفاها حقها - في نظري - ، والقليل النادر الذي تعرض لها ، تحدث عنها بإشارة وجيزة ، وبرأي قاطع سريع .

وقد ذهب بعضهم كالحافظ ابن حجر إلى أن فقد آخر التوبة كان في الجمع البكري ، حيث قال : « والصحيح ما في الصحيح ، وأن الذي فقده زيد في خلافة أبي بكر الآيتان ، من آخر براءة ، وأما التي في الأحزاب ففقدها لما كتب المصحف في خلافة عثمان » [1] .

---

(١) فتح الباري ٨ / ٦٣٨ .

ولكننا في هذا المقام نخالف أستاذ الأجيال ، الحافظ ابن حجر وكل من سار قبله أو بعده على هذا السير . .

ونقول : إن آية الأحزاب كانت مفقودة أثناء الجمع البكري ، لا العثماني . وقد صرح زيد نفسه بذلك فيما أخرجه ابن أبي داود بإسناده ، حيث يقول :

« حدثنا عبد الله ، قال حدثنا على بن حرب ، قال : حدثنا جعفر بن عون . عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري ، عن الزهري ، عن عبيد بن السباق ، عن زيد بن ثابت قال : دعاني أبو بكر فقال : إنك رجل شاب كنت تكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ ، اجمع القرآن فاكتبه ، فوالله لو كلفوني نقل الجبال كان أيسر من الذي كلفني ، فجعلت أتتبع القرآن ، من صدور الرجال ، ومن العسب ، ومن الرقاع ، ومن الأضلاع ، ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ ، لم أجدها عند أحد ، فوجدتها عند رجل من الأنصار ، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فألحقتها في سورتها ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم عند عمر ، حتى مات ، ثم عند حفصة »[1] .

وقد رجح ابن كثير ما اخترناه هنا ، حيث يقول :

« وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه ، في شأن آية الأحزاب ، وإلحاقهم إياها في سورتها ، فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر ، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف ، كما جاء مصرحا به ، في غير هذه الرواية عن الزهري عن عبيد بن السباق ، عن زيد ابن ثابت »[2] .

ولما رأى ابن حجر هذه الرواية صريحة في أن فقد آية الأحزاب كانت في الجمع البكري لم يعجبه ذلك ، وادعى أن هذا وهم من راوي هذا الحديث ، حيث قال : « ووقع في رواية إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن ابن شهاب أن فقده اياها إنما كان في خلافة أبي بكر ، وهووهم منه » .

(١) المصاحف ٨ ، ٧ .

(٢) فضائل القرآن ١٤ .

ثم قال : « وجزم ابن كثير بما وقع في رواية ابن مجمع ، وليس كذلك ، والله أعلم »[1] .

ولكننا من الممكن أن نرد على ما اختاره ، بمثل الذي رد به على ما اخترناه ، ونقول له ، ولماذا لا يكون قد حدث وهم من راوي الحديث الذي استند إليه هو ، وفهم أن آية الأحزاب كانت مفقوده في الجمع العثماني ؟

والذي جعلنا نختار ما اخترناه ، وندعي أن الوهم قد حدث من راوي الحديث الذي استند إليه ، وليس من راوي الحديث الذي استندنا إليه ما يلي :

١ - لا يعقل من الصحابة أن ينتهوا من الجمع البكري دون أن يثبتوا في الصحف البكرية آية الأحزاب ، أو دون أن يشعروا بفقدها ، إلا بعد انتهاء العهد البكري ، ثم العمري ، ثم مدة في عهد الخليفة عثمان ، إلى أن حدثت الفتنة والتنازع في قراءة القرآن ، فأمر عثمان بنسخ المصاحف من الصحف البكرية .

أقول : لا يعقل ذلك خاصة ، وأن الأمة كلها كانت مشتركة في هذا الجمع ، ومشرفة عليه ، وتعلم ما كتبت وما لم يكتب ، إلى أن تم الجمع كله ، على أدق وجوه التحري كما علمنا في موضعه سابقا ، وأنهم كانوا يعتمدون على مصدرين -الكتابة والحفظ - ولا يكتفون بأحدهما ، فهل يعقل بعد ذلك كله أن يكتبوا المصحف ناقصا آية ، ليأتي من هذا المصحف البكري ، الذي جعل ليكون إماما للأمة ، ترجع إليه حين الحاجة ؟

وألم يخطر على بال زيد بن ثابت ، وهو الحافظ المتقن ، والكاتب الماهر ، ألم يخطر على باله وعلى بال كل من شاركه هذا الجمع البكري فقدان هذه الآية أثناء هذا الجمع ، فلم يتذكروا ذلك إلا بعد تلك المدة الطويلة حينما جمعوه مرة ثانية في العهد العثماني ؟

ولا يقال إنهم كتبوها أثناء الجمع البكري ، ثم فقدت من المصحف البكري بعد ذلك وحين الجمع العثماني لاحظوا فقدها فالتمسوها ، فلم يجدوها إلا عند خزيمة ، لا يقال ذلك ، لأنه يبعد أن يحدث تفريط في المصحف البكري ، بعد العناء الشديد من

(١) فتح الباري ٨/٦٣٨ .

الأمة كلها ، خاصة وأنه كان مكتوبا في الجلود الرقاق ، ومحفوظا بين لوحين ، ومربوطا برابط يمنعه من البعثرة ، فكيف تتفلت آية واحدة من هذا الإحكام الدقيق . دون أخوتها المكتوبات معها في صحيفة واحدة من الجلد ؟

٢ - مما يقوي حرصهم الشديد على عدم التفريط في أية آية مكتوبة من المصحف البكري ، أن البعث على هذا الجمع البكري هو خوفهم من ضياع شيء من القرآن مستقبلا ، فكيف يفرطون فيه بعد هذا الجهد الجهيد ، لتضيع منه آية الأحزاب ؟

٣ - وإذا كان زيد قد فقدها في الجمع العثماني بعد أن كتبها في الجمع البكري ، فهل من اللائق أن يقول - كما قال بالفعل - « فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها » أو كان من اللائق أن يقول : فقدت آية من الأحزاب كنت قد كتبتها في الجمع البكري ؟

٤ - بل إن زيدا نفسه صرح في حديث واحد ، بأن الذي افتقده من آخر التوبة ، ومن آية الأحزاب كان في الجمع البكري فقط .

فقد أخرج أبو سهل الأنماري بإسناده من طريق عمارة بن غزية عن الزهري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه زيد بن ثابت ، وهو يتحدث عن الجمع البكري قال : « فعرضت عرضة واحدة فوجدتني قد أسقطت منه هذه الآية » من المؤمنين رجال . . . الآية « فسألت المهاجرين والأنصار فلم أجدها عند أحد منهم ، وقد كنت أعرفها فكرهت أن أثبتها حتى يشهد معي غيري ، فأصبتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، فكتبتها ، ثم عرضت عرضة أخرى ، فوجدتني قد أسقطت آيتين وقد عرفتهما » لقد جاءكم رسول . . . « الآيتان فسألت عنهما المهاجرين والأنصار ، فلم أجدها عند أحد منهم إلا عند أبي خزيمة [١] ، فكتبتهما في آخر براءة ، قال : فعمد أبو بكر على ذلك حتى هلك . . الحديث » [٢] .

---

(١) هذا هو الصحيح ، والذي في أصل الرواية عند خزيمة بن ثابت .

(٢) مقدمة تفسير المباني في نظم المعاني ٢٢ ، ٢١ .

أليس في كل ما تقدم دليل قوي يجعلنا نرجح أن فقد زيد لآية الأحزاب كان أثناء الجمع البكري ، لا العثماني ؟.

أعتقد أن الصواب في ذلك ، خاصة وأن أولئك المستشرقين الأفاكين قد وجدوا في مثل هذا القول الذي يقول إن الصحف البكرية كانت خالية من آية الأحزاب ، وجدوا فيه ما ظنوه طعنا في القرآن ، وقالوا إنه قد جمع ناقصا ، بدليل هذا القول ، الذي يستند على ظاهر ما جاء في بعض الروايات .

تنبيه : لو ذهب إنسان إلى ما ذهب إليه ابن حجر من أن فقد زيد لآية الأحزاب كان أثناء الجمع العثماني ، فإن ذلك لا يضر القرآن وتواتره في شيء ، لأن الاعتماد كما قلنا مرارا على المحفوظ والمتلقي شفهيا لا على المكتوب فلو لم يكتب القرآن أصلاً وإلى الآن ، ما طعن ذلك في تواتره ، ما دام قد نقل كله متواترا ، جيلا بعد جيل .

أمـــا النقطة الثانية :

فقد يحلو لبعض المستشرقين ، ولمن في قلبهم مرض أن يطعنوا في تواتر آخر التوبة ، وآية الأحزاب ، حيث يصرح زيد بن ثابت فيقول :

١ - فتتبعت القرآن أجمعه ، من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ؛ حتى وجدت آخر سورة التوبة ، مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الآيتان .

٢ - ويقول أيضا : « فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة ابن ثابت (من المؤمنين رجال) الآية .

أقول قد يحلو لأولئك الأفاكين أن يطعنوا في تواتر هذه الآيات ، استنادا لهذا الذي صرح به زيد بن ثابت ، ولكن هذا لا يدل لهم كما يشتهون ، وتوضيح ذلك كما يأتي :

١ - فزيد -كما سبق في كيفية جمع القرآن - لم يكن يكتفي بالحفظ فقط ، ولا

بالمكتوب فقط ، بل كان يعتمد في جمعه على المصدرين معا .

قال الحافظ ابن حجر : « قوله لم أجدها مع أحد غيره ، أي مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي ﷺ ، وإنما كان زيد يطلب التثبيت عمن تلقاها بغير واسطة » .

إلى أن يقول : « والحق أن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة لا نفي كونها محفوظة »[1] .

٢ - ومما يدل على أن هذا المفقود كان مفقود كتابة لا حفظا ، تلك الألفاظ التي عبر بها زيد بن ثابت نفسه في قوله « فقدت آية من الأحزاب » وفي قوله : « فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة » .

فقوله « فقدت » دليل على أنها محفوظة ، وإلا فكيف عرفوا فقدها ، وقوله « فالتمسناها » يدل على أنهم يبحثون عنها مكتوبة ، وإلا فكيف يبحثون عن شيء مجهول ، لا يحفظونه أصلا ؟

إنهم كانوا يحفظونها جيدا ، بل وكانوا يعرفون موضعها من سورتها تماما ، ولذلك قال زيد « فألحقناها في سورتها في المصحف » .

ومن ألفاظ زيد أيضا التي تدل على أن هذا المفقود كان مفقودا كتابة لا حفظا ما عبر به فيما أخرجه أبو سهيل الأنماري ، وذكرناه قريبا ، حيث قال : فعرضت عرضة واحدة فوجدتني قد أسقطت منه هذه الآية : « من المؤمنين رجال صدقوا » فسألت المهاجرين والأنصار فلم أجدها عند أحد منهم ، وقد كنت أعرفها ، وقد كان أملاها علي رسول الله ﷺ ، فكرهت أن أثبتها حتى يشهد معي غيري ، فأصبتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري ، الذي أجاز له رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، فكتبتها .

ثم عرضت عرضة أخرى ، فوجدتني قد أسقطت آيتين ، وقد عرفتهما ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيتان ، فسألت عنهما المهاجرين والأنصار ، فلم أجدهما

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٣٣ .

عند أحد منهم ، إلا عند أبي خزيمة [(١)] فكتبتهما في آخر براءة [(٢)] .

فألفاظ هذه الرواية وسياقها يدل دلالة واضحة على أن المفقود هو المكتوب لا المحفوظ .

ومما يدل على أن المفقود كان مفقودا كتابة لا حفظا :

قول أبي بن كعب فيما أخرجه ابن أبي داود بإسناد عن أبي العالية : « إنهم جمعوا القرآن في مصحف ، في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويملي عليهم أبي بن كعب ، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة : » ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون « ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن ، فقال أبي : إن رسول الله ﷺ قد أقرأني بعدهن آيتين : (لقد جاءكم رسول) الآيتان . . .

ولصاحب تفسير « المباني في نظم المعاني » توضيح لطيف لهذه المسألة ، إذ يقول في مقدمة تفسيره هذا :

« وليس معنى ذلك أنهم أخذوا الآيات منه - أي من خزيمة أومن أبي خزيمة - بل إنها كانت معروفة عندهم ، ولكنهم لم يجدوها إلا عند هذا الرجل ، فلما وجدوها عنده كتبوها عنه ، ولو شاءوا لكتبوها عن حفظهم .

أولا ترى أنها لولا أنها كانت معروفة عندهم لم يفتقدوها ، وكيف يفتقدون مالا يعرفون هل هو أصلا ؟ ولكن الحافظ للقرآن قد يحتاط ، فيطلب مصحفا يكتب منه .

مع أن عمر ﷺ قد اشتهر عنه الخبر ، لشدة إنكاره على من يكتب المصحف عن ظهر قلبه ، لما اختير الاحتياط ، ومنع الناس من المساهلة فيه .

أخبرنا منصور بن العباس ، قال : أخبرنا الحسن بن سفيان ، قال : حدثنا اسحاق بن إبراهيم ، وابن أبي شيبة ، ومحمد بن المثنى ، قالوا حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا

---

(١) هذا هو الصحيح ، والذي في أصل هذه الرواية عند خزيمة بن ثابت الذي أجاز رسول الله شهادته ، وهووهم من الراوي فيما يرويه عن زيد .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن٢٢ ، ٢١ .

الأعمش عن إبراهيم عن علقمة ، قال : جاء رجل إلى عمر وهو يعرفه ، فقال جئتك يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وبها رجل يملي المصاحف عن ظهر قلبه ، فغضب ، زاد ابن أبي شيبة وابن المثنى : « وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرجل » ، قالوا : ثم قال : من هو ؟ ويحك ، قال : عبد الله بن مسعود ، قال : فانطفأ عنه الغضب ، قال : ويحك ما بقي من الناس أعلم بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك ، ثم ذكر عمر حديثا في ذلك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد .

ثم يستطرد صاحب هذا التفسير فيقول في مقدمته : واستنكار الرجل ذلك من أوكد دليل على أن العامة في ذلك الزمان كانت تستنكره ، وكذلك تخصيصه عبد الله بذلك دليل على امتناع سائرهم من مثله »[1] .

ومما نرد به على أولئك الذين يريدون التشكيك في تواتر آخر التوبة ، وآية الأحزاب ، لوجودها مكتوبة عند شخص واحد :

أن المعول عليه - كما أكدنا على ذلك مرارا - هو الحفظ ، لا الكتابة . فحتى لو لم يجد زيدا هذه الآيات المكتوبة عند من وجدها فإن ذلك لن يضير القرآن في شيء ، ذلك أن الأمة كانت تحفظ هذه الآيات ، ولولا أنها كانت تحفظها ما أجمعت على كتابتها ، فليس من المعقول على الإطلاق أن يخص الرسول ﷺ من وجدت عنده هذه الآيات بالتبليغ وحده ، دون سائر الأمة ، بدليل أحاديث متعددة ، ذكرنا بعضها سابقا ، تدل على أن الصحابة كانوا يحفظونها ، وإنما الذي كانوا يفتقدونه هو كتابتها فقط .

يقول عبد الوهاب غزلان : « إجماع الصحابة على كتابتها في المصحف لا يمكن أن يكون مستندهم فيه رواية واحد فقط ، فإن الخصوصية التي تلزم القرآن ، ولا تنفك عنه هي أنه : تتوافر الدواعي على نقله ، وكونه أصل الشريعة ، فلو تجردت هاتان الآيتان عن تلك الخصوصية ، التي هي من لوازم القرآن ، لما أجمع الصحابة على كتابتها

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ٣٥ ، ٣٦

في المصحف »[1].

والآن أعتقد أننا في غنى عن تلك الآثار التي يستشهد بها بعض المتقدمين والمتأخرين على أن بعض الصحابة كانوا يحفظون هذه الآيات التي افتقدها زيد أثناء جمعه، كعمر وعثمان وأبي الحارث بن خزيمة، ذلك أن التواتر لا يثبت بثلاثة أو أربعة، أو بقريب من هذا العدد.

وعلى ذلك: فالتوجيه الصحيح، أو الركيزة المعتمد عليها في توضيح قول زيد، في فقده لهذه الآيات أن يقال أن المقصود هو كونها مكتوبة، لا كونها محفوظة، وأنهم ما كانوا ينسخون إلا مما هو مكتوب ومما هو موافق للمحفوظ، ولا يكتفون بالمحفوظ، بل ينكرون على من يكتب من ذاكرته وحفظه أشد النكير، كما وضح من الأثر المروي عن عمر سابقا.

وبذلك يتضح أن الآيات التي فقدها زيد أثناء جمعه ولم يجدها مكتوبة إلا عند شخص واحد متواترة تواتر جميع آيات القرآن الكريم، ولا حجة لمن في قلبه مرض إذا ذهب إلى غير ذلك.

ملاحظة:

اختلف الرواة فيمن وجد زيد عنده آخر سورة التوبة، فبعضهم يقول إنه أبو خزيمة، وبعضهم ينص على أنه خزيمة وبعضهم يشك، فيقول خزيمة أو أبو خزيمة، ولكن بالتحقيق نستطيع أن نخرج في النهاية بأن الذي وجد عنده آخر التوبة هو أبو خزيمة الأنصاري، وأن الذي وجد عنده آية الأحزاب هو: خزيمة بن ثابت.

يقول أبو شامة، وهو يتحدث عن خزيمة بن ثابت الذي وجدت معه آية الأحزاب: « وخزيمة هذا غير أبي خزيمة بن أوس بن زيد من بني النجار، شهد بدرا وما بعدها، وتوفي في خلافة عثمان، وهذا خزيمة بن ثابت بن الفاكه من الأوس، شهد أحدا وما

---

(1) البيان ١٧٣.

بعدها ، وقتل يوم صفين »[1].

ويقول الحافظ ابن حجر : « والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة ، بالكنية ، والذي وجد معه الآيات من الأحزاب خزيمة ، وأبو خزيمة قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أصرم ، مشهور بكنيته دون اسمه ، وقيل هو الحارث بن خزيمة ، وأما خزيمة فهو ابن ثابت ، ذو الشهادتين ، كما تقدم صريحا في سورة الأحزاب »[2].

سمات الجمع البكري

اتسم جمع القرآن الذي قام به زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر ، بعدة سمات ، من أهمها :

١ – أنه قام على أسلم أصول البحث ، وأدق وجوه التحري ، كما سبق توضيحه .

٢ – أنه كان موافقاً لآخر ما استقر عليه القرآن ، ومن تمييز الناسخ من المنسوخ ، فمن جاءهم أثناء الجمع بمنسوخ لا يدري نسخه ردوه ، ولم يكتبوه ، كما جاء في تلك الرواية التي تنص على أن عمر جاء بآية الرجم ، وهو لا يعلم نسخها ، فردوها ، ولم يثبتوها .

٣ – كما أنهم لم يثبتوا إلا ما كان متواترا ، وتحقق عند الجميع قرآنيته .

٤ – أن كل سورة كانت آياتها مرتبة تماما ، كما هي محفوظة ، إلا أنهم حيئذ لم يهتموا بترتيب السور ، كما هو موجود في المصحف اليوم ، إذ كان همهم الأكبر جمع القرآن كله مكتوبا ، فجمعوه كذلك ، ورتبوا آيات كل سورة ، بحيث أصبحت كل سورة مستقلة بذاتها .

٥ – كان المصحف البكري مجردا من النقط والشكل ، ليشمل في مجموعه الأحرف السبعة ، قدر الإمكان .

---

(١) المرشد الوجيز : ٥١

(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٣١ ، ٦٣٢

٦ – ومن سمات هذا الجمع البكري أيضا ومن فوائده ، ما ذكره الشيخ عبد الوهاب غزلان بقوله : « اتصال السند الكتابي بالأخذ عن الصحف ، التي كتبت بين يدي النبي ﷺ ، كاتصال السند المتواتر ، في الرواية والتلقي عن الشيوخ ، فتكون كتابة أبي بكر بمثابة الطبقة الثانية من الشيوخ ، وكتابة عثمان بمثابة الطبقة الثالثة ، وهكذا مرات الانتاج من المصاحف العثمانية »(١).

وهكذا تم هذا العمل الجليل ، الذي حفظ للأمة بإرادة الله عز وجل قرآنها من الضياع والتحريف ، وسيظل هذا العمل ـ كما يقول الزرقاني ـ منقبة خالدة ، لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل ، لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار »(٢).

وما أعظم اعتراف الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، بالجميل الذي قام به الخليفة الأول أبو بكر ، تجاه القرآن ، وتجاه أمة القرآن إلى يوم الدين ، حيث يقول فيما يرويه ابن أبي داود : « أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين »(٣).



(١) البيان في مباحث من علوم القرآن : ١٨٥

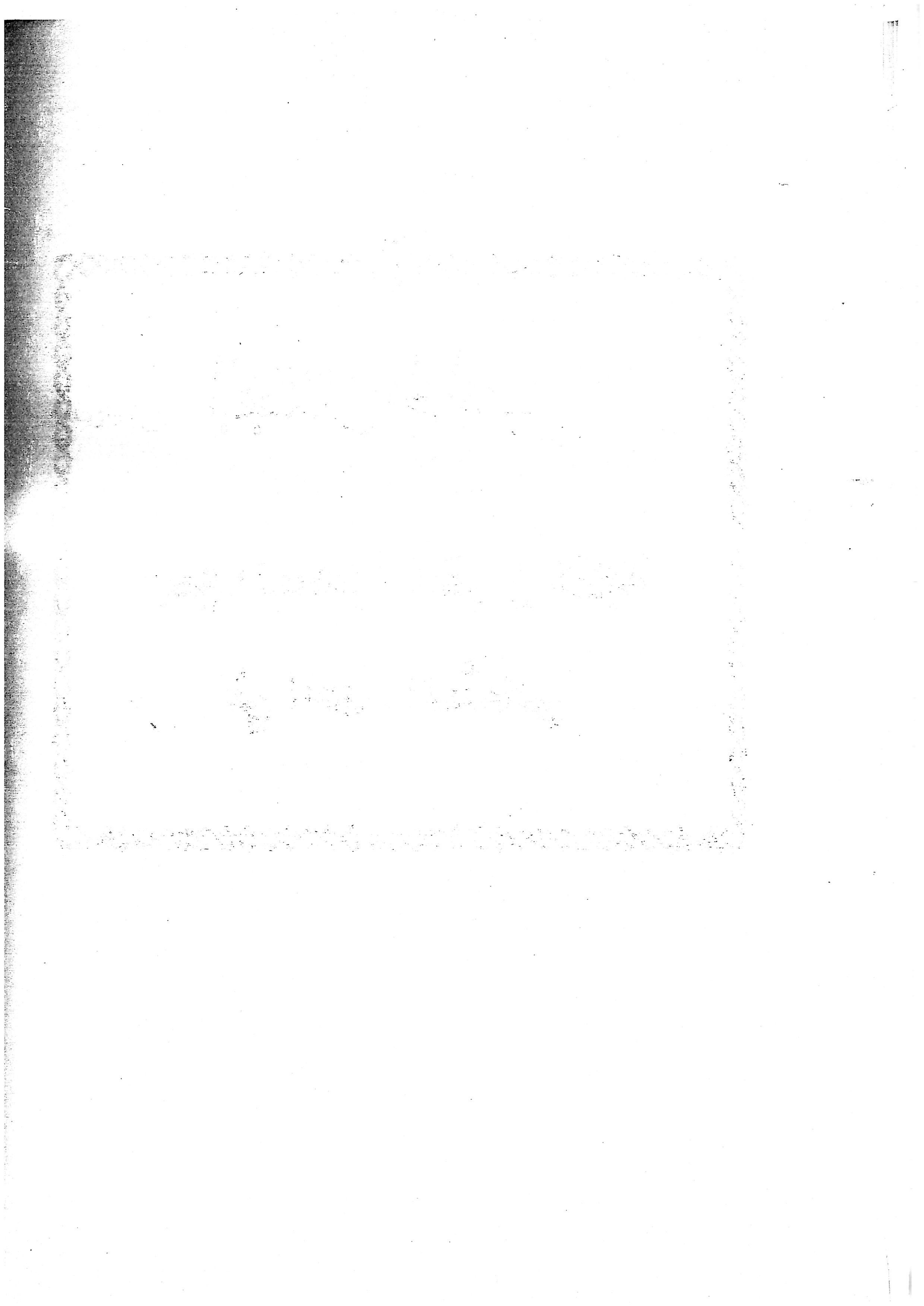
(٢) مناهل العرفان : ١/٢٥٣

(٣) المصاحف : ص٥ .

الفصل الخامس

جمع الصحابة القرآن كتابة

في العهد العثماني



جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد العثماني

سبب الجمع :

بعد أن أدى رسول الله ﷺ مهمته التي كلف بها ، من تبليغ رسالة ربه ، ومن الله عليه وعلى أمته بدخول الناس في دين الله أفواجا ، اختاره الله عز وجل إلى الرفيق الأعلى ، ليحمل عبء نشر هذه الدعوة من بعده أصحابه الكرام ، الذين أشربت قلوبهم الإيمان شربا ، وجرى الإسلام في دمائهم وأقوالهم وأفعالهم جريا .

وما أن مضت سنوات قليلة ، هي مدى خلافتي أبي بكر وعمر ، إلا وانساح الإسلام شرقا وغربا ، واتسعت الفتوحات الإسلامية ، واستبحر عمران المسلمين ، وخلط الإسلام بين معتنقيه من العرب والعجم ، في كل مناحي الحياة ، إذا أنه دعوة عالمية ، لا تعرف أي نوع من أنواع التعصب ، مهما أخذ هذا النوع شكله ، سواء أكان في الجنس ، أم في اللون ، أم في الهيئة ، أم في غير ذلك .

خلط الإسلام بين العرب أنفسهم - بعد أن تناءت ديارهم ، وتفرقت قبائلهم - من ناحية ، وبين العرب والعجم من ناحية أخرى ، فتشارك الجميع في الحضر والسفر ، كما اجتمعا معا في السلم والحرب .

وكان من تقدير الله عز وجل لضمان انتشار دينه ، وحفظ كتابه ، أن تفرق الحفاظ من الصحابة في جميع القرى والأمصار ، واستجابة لأمر رسول الله ﷺ « بلغوا عني ولو آية »[1] ، وطمعا في الوصول إلى مرتبة الخيرية التي سمعوا عنها من الرسول ﷺ

(١) البخاري في كتابه الأنبياء ، باب (٥٠)

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه » [1] ، من أجل ذلك تنافسوا في تبليغ قرآن ربهم إلى كل من استطاعوا ممن خالطوهم قراهم وأمصارهم ، فأقرأ كل صحابي من استطاع اقراءه ، بالقراءة التي أخذها عن رسول الله ﷺ .

فكان عبد الله بن مسعود يقرئ أهل الكوفة ، وأبو موسى الأشعري يقرئ أهل البصرة ، وأبي بن كعب يقرئ أهل الشام ، وهكذا .

ونتج عن هذا اختلاف بين قراءة أهل كل قطر مع الأقطار الأخرى ، نتيجة اختلاف مشرب كل قطر عن مشرب الأقطار الأخرى ، وبدا ذلك واضحا حينما التقى المسلمون من كل الأقطار مع بعضهم في المعارك والغزوات ضد أعدائهم .

« جاء في رواية عمارة بن غزية أن حذيفة قدم من غزوة ، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين : أدرك الناس ، قال : وما ذاك ؟ قال غزوت فرج أرمينية ، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فيكفر بعضهم بعضا . [2]

سبب الاختلاف والتنازع

وكان سبب هذا الاختلاف في القراءة ، وذلك التنازع بينهم جهلهم بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وأن الإنسان مخير في أن يقرأ بأيها أحب وشاء .

وكان هذا الاختلاف والتنازع شبيهين بما وقعا لبعض الصحابة أثناء حياة الرسول ﷺ .

أخرج البخاري في صحيحه [3] عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته ، فإذ هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب (٢١)

(٢) انظر فتح الباري : ٨/ ٦٣٤

(٣) في كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف .

سلم ، فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله ﷺ قد قرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر فقرأ للقراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك إنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءا ما تيسر منه » .

نعم لقد كان الاختلاف بين المسلمين في عهد عثمان في قراءة القرآن شبيها بذلك الاختلاف في العهد النبوي ، بل فاقه إلى درجة أن كفر بعضهم بعضا .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة قال :

« لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا » [1] .

وأخرج ابن أبي داود أيضا ولكن من طريق محمد بن سيرين أنه قال : « كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه كفرت بما تقول »

ومما زاد الأمر خطورة ، أن هذا الاختلاف لم يكن قاصرا على القراءة فحسب ، بل تعدى ذلك إلى ما كان عندهم من مصاحف خاصة .

أخرج ابن أبي داود وغيره عن أبي وائل قال : « خطبنا عبد الله ابن مسعود على المنبر فقال : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[2] غلوا مصاحفكم ، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله ﷺ ، بضعا وسبعين سورة ، وأن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان » [3] .

---

(١) انظر المصاحف ٢١ ، وفتح الباري : ٨/ ٦٣٥ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٦

(٣) المصاحف : ١٥

الصحابة يهتمون بالأمر ويقدرون خطورته

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد من الاختلاف ، وعندما تفاقم هـذا الخطر حتى وصل إلى حد التكفير ، تطلع كبار الصحابة إلى عمل يقضي على هـذا الاختلاف ، ويمحو تلك الأسباب التي جعلتهم يتراشقون بالتكفير ، فرفعوا الأمر إلى خليفة المسلمين ، ليسد الخرق قبل أن يتسع على الراقع ، فيعجز عن إصلاح ذلك الخلل ، فتكون فتنة في الدنيا ، وفساد في الدين .

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام ، في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى [(١)] .

وأخرج ابن أبي داود من طريق بكير بن الأشجع أن ناسا بالعراق يسأل أحدهم عن الآية ، فإذ قرأها قال : إلا أني أكفر بهذه ، ففشا ذلك في الناس ، واختلفوا في القرآن ، فكلم عثمان بذلك » [(٢)] .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا أن حذيفة كان في مسجد من مساجد الكوفة زمن ولاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فسمع رجلا يقول : قراءة ابن مسعود ، وسمع آخر يقول : قراءة أبي موسى ، فقام فخطب في الناس ، فقال : هكذا اختلف من كان قبلكم ، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين » [(٣)] .

الخليفة يستشير ، ثم يصدر أمرا

وما أن وصل الأمر إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، إلا وشعر هو الآخر بفداحة الأمر ، وعظيم خطره ، على القرآن ، وعلى الأمة ، على حد سواء ، لاسيما وأن هذا الاختلاف والتنازع قد وصل إلى مقربة من المدينة بتلك الأقطار النائية عنها .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٢) المصاحف : ٢٣ .

(٣) انظر فتح الباري ٨/ ٦٣٤ ، والمصاحف : ١١ ، ١٢ .

ولذلك ما أن بلغه الخبر إلا وقام خطيبا في الناس ، وصرخ فيهم قائلا كما أخرجه ابن أبي داود : « أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافا ، وأشد لحنا »[1] .

ثم تداول الخليفة الرأي مع كبار القوم ، وأولى الأحلام والنهي ، لاتخاذ وسيلة تمحو هذا الاختلاف ، وتزيل أسباب التنازع ، فتفتق ذهنه الحصيف ، عن ضرورة كتابة مصحف إمام لكل قطر من الأقطار ، يكون مرجعا لكل من فيه ، منه يقرأون ويقرئون ، وإليه يحتكمون .

أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح أن عثمان قال لكبار الأمة حينما قالوا له : فما ترى ؟ ، قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فنعم ما رأيت »

فطنة عثمان وبعد نظره

وإذا كان الخليفة عثمان ﷺ قد أراد جمع الناس على المصحف ، فإنما لم يقصد به من قرب أو بعد من المكان الذي هو كائن فيه فقط ، بل أراد أيضا من قرب أو بعد الزمان الذي يعيش فيه أيضا . لأن الناس إذا كانوا قريبي عهد بالنبوة ، واختلفوا في القرآن إلى هذا الحد ، فمن باب أولى إذا تباعد بهم الزمان عن هذا العهد النبوي ، ولذا قال عثمان في رواية مصعب بن سعد : « أيها الناس : عهدكم بنبيكم منذ ثلاثة عشرة وأنتم تمترون في القرآن ، وتقولون قراءة أبي ، وقراءة عبد الله ، يقول الرجل : والله ما نقيم قراءتك »[2] .

نعم . . . إن عثمان كان ينظر إلى الأمام ، ولا ينظر إلى الزمان الذي فيه يعيش ، إنه يعلم فعل الزمن مع الناس ومع القرآن ، إذا استمر الناس على هذا الاختلاف في هذا القرآن .

---

(١) المصدر السابق : ٢١

(٢) المصاحف : ٢٣

ولقد صدق أبو مجلز التابعي الجليل ، حينما قال عن علم عثمان : « لولم يجمع الناس على قراءة واحدة لقرأ الناس القرآن بالشعر »[1] .

وما أروع قول الرافعي وهو يتحدث عن عظمة الجمع العثماني ، وعن خطورة الزمن على الناس وعلى القرآن ، لو لم يفعل عثمان ما فعل . . .

يقول الرافعي رحمه الله « وإنما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف ، لأنه أمر يمد مع الزمن ، وتنشعب الأيام به ، وهو أن أمن في عصره ، لم يدر ما يكون بعد عصره ، وقد أدرك أن العرب لا يستمرون عربا على الاختلاف والفتوح ، وأن الألسنة تنتقل ، واللغات تختلف .

ثم هو رأى ما وقع في الشعر وروايته ، وأن الاختلاف كان بابا إلى الزيادة والإبداع ، فلم يفعل شيئا أكثر من أنه حصن القرآن ، وأحكم الأسوار حوله ، ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشيء ، وجعله بذلك فوق الزمن »[2] .

عثمان يشرك الأمة كلها في جمع القرآن

وإذ كان عثمان بن عفان هو الذي تفتق ذهنه عن فكرة هذا العمل الجليل ، إلا أنه أراد أن لا ينفرد بتنفيذه ، بل طلب إلى الأمة كلها أن تشارك فيه .

أخرج ابن أبي داود أن عثمان قال : « اجتمعوا يا أصحاب محمد ، واكتبوا للناس إماما »[3] .

كما أخرج أيضا عن سويد بن غفلة الجعفي أنه قال : « والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب ، ﷺ ، سمعته يقول : « يا أيها الناس ، لا تغلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا ، في المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا جميعا »[4] .

---

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة : ٦٩

(٢) إعجاز القرآن ، لمصطفى صادق الرافعي ، ص : ٣٩ ، ٤٠ ، ط

(٣) المصاحف : ٢١

(٤) المصاحف : ٢٢

انتقاء لجنة عظمى لكتابة المصاحف

وعندما عزم عثمان - ومعه الأمة - على كتابة المصاحف ، انتقى ﷺ لجنة عظمى من الصحابة ، هي من خيرة الحفاظ والكتاب ، لتباشر هذا العمل الجلل .

فانتقى بادئ ذي بدء أربعة أشخاص ، هم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، كما جاء في حديث البخاري عن أنس في حديث جمع القرآن : « فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . . الحديث »

وتنص بعض الروايات أن أعضاء اللجنة كانوا إثني عشر رجلا .

أخرج ابن أبي داود عن محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال :

« لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار ، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت » [1] .

ولا تناقض بين الروايتين كما هو واضح ، لأن هؤلاء الأربعة هم الذين وقع عليهم الاختيار أولا ، ثم ألحق عثمان بهم ثمانية آخرين ، ليعينوهم في هذا العمل الجلل ، ليتمكنوا من سرعة نسخ مصحف إلى كل قطر من الأقطار المختلفة ، وإرساله إليه .

وعلى ذلك : فلو وجدنا رواية تقتصر في كتابة المصاحف العثمانية على ذكر زيد بن ثابت فلأنه رئيس اللجنة ، وإذا وجدنا رواية تقتصر على ذكر الأربعة ، فلأنها اللجنة الأساسية ، وإذا وجدنا رواية تنص على أنهم اثنا عشر ، فباعتبار إنضمام الثمانية المساعدين إلى اللجنة الأساسية .

من هم كتبة المصاحف العثمانية ؟

وإذا كان مجموع الروايات ينص على أن كتبة المصاحف كانوا اثنى عشر رجلا ، فإننا لا نستطيع أن نخرج منها إلا بتعيين عشرة فقط .

---

(١) المصدر السابق : ٢٥

(أ) فرواية البخاري تسمى أربعة ، حيث جاء فيها :

« فأمر ـ أي عثمان ـ زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف » .

(ب) وابن أبي داود ينكر في كتابة المصاحف عدة روايات مفرقة لتشمل – بالإضافة إلى من سبق – خمسة آخرين ، اشتركوا في هذه اللجنة ، بعضهم ساهم بالإملاء ، وبعضهم ساهم بالكتابة ، وهم :

١ – مالك بن أبي عامر ، جد مالك بن أنس .

٢ – وكثير بن أفلح .

٣ – وعبد الله بن عباس .

٤ – وأنس بن مالك .

٥ – وعبد الله بن عباس .

(جـ) ويضيف أبو عمرو الداني في كتابه (المقنع) إلى من سبق ذكرهم شخصا عاشرا ، حيث يذكر لنا رواية فيها تعيين خمسة أشخاص ، منهم شخص جديد ، ألا وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث يقول :

« فأرسل عثمان إلى زيد بن ثابت ، وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى ابن عباس ، وإلى عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقال : انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد » [1] .

فهؤلاء عشرة قد عرفوا من الاثنى عشر ، أما الشخصان الآخران فالظاهر كما يفهم من كلام الحافظين ابن حجر والسيوطي ، أنهما غير معروفين .

الخليفة يضع خطة الكتابة

وحينما اتخذ عثمان قراره بكتابة عدة مصاحف إلى كل قطر ، واصطفى لذلك العمل مجموعة من خيرة حفاظ الأمة وكتبتها ، لم يدع لهذه اللجنة الكيفية التي تتراءى

---

(١) المقنع : ١٤ .

لها ، بل حدد لها خطوات معينة ، وألقى عليها تعليمات خاصة ، وكان من أمره ﷺ مع هذه اللجنة ما يأتي :

(أ) أمر بإحضار الصحف التي جمع فيها القرآن ، في خلافة أبي بكر ، التي كانت عن السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ، حيث قال لها : « أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك »[1] .

(ب) حدد للجنة الحرف الذي يكتبون عليه القرآن ، وهو حرف قريش ، حيث قال للقرشيين الثلاثة -وهم عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث - « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم »[2] .

قال بعض العلماء ، ومراد عثمان من قوله : « فإنما نزل بلسان قريش » أن معظمه نزل كذلك ، لأن فيه ألفاظا غير قرشية ، بل غير عربية ، وهذا القول منهم أراه بعيدا عن الصواب ، فإن عثمان ﷺ أراد ظاهر ما نطق به ، من أن كل حرف في القرآن قرشي ، وإذا كان الله عز وجل قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[3] ولم يقل قرآنا قرشيا فليس هناك ما يمنع أنه كله قرشي ، إذ أن قريشا أفصح العرب على الإطلاق ، وأن كل القبائل كانت تتحاكم إليها في ذلك ، وكانت قريش تنتقي من اللغات الأخرى أفصحها ، ثم تتحدث قرشي ، إما أصلا وإما بتصييره كذلك .

قال ابن قتيبة فيما جاء عنه في المرشد الوجيز[4] : « غير جائز أن يكون في القرآن غير لغة قريش ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[5] .

(جـ) حدد عثمان ﷺ لكل عضو من أعضاء اللجنة مهمة خاصة ، عرف البراعة

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) سورة الزخرف : ٣

(٤) صفحة : ٩٤

(٥) سورة ابراهيم : ٤ .

فيها ، بحيث لم يوجد من يفوقه فيها ، وإن كان عرف عنه إجادة وإتقان في أكثر من ناحية استفاد منه بكل ذلك .

ولذلك وجدناه يأمر بعضهم بالكتابة تارة ، وبالإملاء تارة أخرى . ولقد لفت ذلك نظر أبي بكر الباقلاني ، حينما رأى روايتين إحداهما تنص على أن عثمان بن عفان دعا أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وقال لأبي : (أمل على هؤلاء القرآن في المصاحف) ، أما الثانية فقد جاء فيها أن عثمان قال : (فليمل سعيد وليكتب زيد) .

قال معلقا على هذا الخبر الأخير : « فهذا الخبر يقضي بأن سعيدا قد كان ممن يملي المصحف ، ولا يمتنع أن يمله سعيد ، ويمله أبي أيضا ، فيحتاج إلى أبي ، لحفظه واحاطته علما ، بوجوه القراءات المنزلة ، التي يجب إثباتها جميعا ، وأن لا يطرح شيء منها ، ويجب نصب سعيد بن العاص ، لموضع فصاحته ، وعلمه بوجوه الإعراب ، وكونه أعربهم لسانا ، وقد قيل أن سعيدا كان أفصح الناس ، وأشبههم لهجة برسول الله ﷺ . وليس يجب أن تتعارض هذه الأخبار ، لأنه قد ذكر في كل واحد منها ممل غير الذي ذكر في غيره ، لأنه لا يمتنع أن ينصب لإملائه قوم فصحاء ، حفاظ يتظاهرون على ذلك ، ويذكر بعضهم بعضا ، ويستدرك بعضهم ما لعله يسهو عنه غيره ، وهذا من أحوط الأمور وأحزمها ، في هذا الباب » [1]

(د) ولما كان المراد من كتابة المصاحف ، اتفاق أهل كل قطر على قراءة متواترة ، يقرأ بها من نزل بينهم من الصحابة ، مع مراعاة اشتمال المصاحف في مجموعها على كل الأحرف السبعة فقد جردت اللجنة الألفاظ القرآنية من النقط و الشكل ، وعلى ذلك نظروا إلى اللفظ .

١ - فإن كان يحتمل أكثر من قراءة متواترة ، حالة خلوه من النقط والشكل كتبوه في جميع المصاحف برسم واحد ، نحو(فتبينوا) و(فتثبتوا) من سورة الحجرات ، ونحو (ننشزها) و(ننشرها) من سورة البقرة ، وكذلك كلمة (أف) والتي قالوا عنها أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجها .

---

(١) نقلا عن المرشد الوجيز لأبي شامة .

٢ - أما إذا كان اللفظ لا يحتمل قراءة واحدة ، رغم خلوه من النقط والشكل ، وله قراءة أخرى أو أكثر متواترة ، فإنهم كانوا يرسمون هذا اللفظ في مصحف برسم يوافق قراءة ، وفي مصحف آخر برسم آخر يوافق القراءة الأخرى ، نحو قراءة (تجري من تحتها الأنهار) من سورة التوبة ، بدون (من) في قراءة ، وبإثباتها في قراءة أخرى ، ونحو قوله(وصى) بالتضعيف ، و(أوصى) بالهمز وهكذا .

وكان من منهجهم في كتابة هذا النوع الثاني أنهم يتحرزون عن كتابته مكررا في مصحف واحد ، أحدهما عقب الآخر ، حتى لا يتوهم أنه قد نزل من السماء مكررا ، وأنه يجب أن يقرأ هكذا .

كذلك لم يكونوا يكتبون هذا النوع برسمين في مصحف واحد ، أحدهما في صلب الآية ، والآخر على هامش المصحف ، لأنه قد يظن حينئذ أن ما في الهامش تصحيح لما في الصلب ، وأيضا فقد يقول قائل لم اختير هذا في الصلب دون ذلك الذي ورد في الهامش ، ولم يحدث العكس ؟ فهو ترجيح بلا مرجح !!

السبب في ذلك

والذي جعل الصحابة يسلكون ذلك المسلك في كتابة المصاحف ، أنهم رأوا القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وبأوجه متعددة ، فرأوا أن يكتبوه كما تلقوه من الذي أنزل عليه ﷺ ، حتى لا يسقط شيء من القراءات المتواترة ، وحتى لا يمنع أحد من القراءة بأي حرف نزل عليه القرآن ، تيسيرا له وتسهيلا ، وإلا فما الداعي إلى تعدد القراءات ؟ وما فائدة إنزال القرآن على هذه الأحرف السبعة .

إشراف عثمان على كتابة المصاحف

ولما كان عثمان هو خليفة المسلمين ، ولما كان هو صاحب فكرة نسخ المصاحف المتعددة ، ولما كان أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، ولما كان أحد حفاظ الأمة ومتقنيها ، لما كان عثمان كذلك لم يكل الأمر إلى لجنة الكتابة ، إتكالا على ثقته الكاملة في أهليتهم لهذا الأمر ، بل كان يتفقدهم باستمرار ، ويتعاهد عملهم على الدوام ، حتى يخرج إلى الوجود على أحسن صورة ، ليؤدي المهمة التي أجمعت الأمة عليها .

أخرج ابن أبي داود بإسناده عن كثير بن أفلح أنه قال : « وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه »

وأخرج أبو عمرو الداني بإسناده عن زيد بن ثابت أنه قال :

« فجعلنا نختلف في الشيء ، ثم نجمع أمرنا على رأي واحد ، فاختلفوا في (التابوت) ، فقال زيد (التابوه) ، وقال النفر القرشيون (التابوت) ، قال : فأبيت أن أرجع إليهم وأبوا أن يرجعوا إلي ، حتى رفعنا ذلك إلى عثمان : فقال عثمان اكتبوه (التابوت) فإنما أنزل القرآن على لسان قريش »[1] .

وكانت اللجنة ـ بإشراف عثمان عليها ـ لا تفعل شيئا لم يفعله الرسول ﷺ في النص القرآني .

أخرج البخاري في صحيحه (٢٨) أن ابن الزبير قال : لقلت لعثمان ابن عفان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ [2] قال : قد نسختها الأخرى ، قلت : فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي ، لا أغير شيئا من مكانه » .

فقول ابن الزبير : « فلم تكتبها أو تدعها » ؟ فيه دلالة على أنهم كانوا يستوثقون لما يكتبون ، ويرجعون إلى الخليفة فيما إليه يحتاجون وإجابة عثمان لابن الزبير بقوله : (لا أغير شيئا من مكانه) فيه دلالة كذلك على أنه كان يرشدهم إلى ما فيه إجابة أسئلتهم ، ليتحقق لهم صواب عملهم .

وهكذا ظل عثمان يتعاهد لجنة الكتابة حتى أتموا نسخ المصاحف ، وأرسلوها إلى كل الأقطار .

ما الذي فعله عثمان ؟

إن عثمان ﷺ ما فعل في المصاحف التي أرسلها إلى كل قطر ، سوى أنه نسخها من الصحف البكرية ، بالطريقة التي بيناها سابقا ، بدليل أن عثمان أرسل إلى حفصة قائلا لها : (أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك) .

---

(١) المصاحف : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٠

وعلى ذلك فما يذكره البعض خاصة من المؤلفين المعاصرين من أن طريق جمع عثمان كانت كطريقة جمع أبي بكر تماما ، من الرقاع والأكتاف ونحو ذلك فهو غير صحيح ، لأنه لا يعقل أن يشغل عثمان الأمة بأمر قد فرغت منه في عهد أبي بكر ، وإن كان ما يتعللون به هو زيادة الاحتياط والتوثيق للنص القرآني ، وإلا فما فائدة هذه الصحف البكرية ؟ وهل لا يوثق بها ؟ إن هذا القول منهم عبث .

إن هؤلاء الذين قالوا بأن عثمان كتب مصاحفه من الرقاع والأديم والعسب ونحوذلك مما كان عند الناس يستندون إلى روايات لا ترقى من الصحة ما رقت إليه أحاديث البخاري في هذا الموضوع ، من أن عثمان أرسل إلى حفصة لترسل إليه الصحف البكرية لينسخ منها المصاحف .

وعلى فرض صحة تلك الروايات التي تنص على أن عثمان كان يسأل من عنده شيء من الرقاع ونحوها ، فإن ذلك لم يكن للتثبت من قرآنية آية آية ، ولكن للتثبت من كيفية القراءة بها ، وفرق كبير بين قرآنية الآية والقراءة التي تقرأ بها الآية ، كما هو معلوم ، وكان تثبته من كيفية القراءة لأنه أراد أن تكتب المصاحف في مجموعها على جميع القراءات ، التي قرأها الرسول ﷺ ، ليقضي على الفتنة التي حدثت بين المسلمين ، بسبب جهلهم هذه القراءات .

والدليل على أن عثمان ﷺ كان يتحرى للكيفية للقرآنية ، ما رواه أبو عمرو الداني في المقنع بإسناده أن عثمان قال : « يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما يجمعهم ، قال : وكانوا في المسجد فكثروا ، فكانوا إذا تماروا في الآية يقولون : إنه أقرأ رسول الله ﷺ فلان بن فلان ، وهو على رأس أميال من المدينة ، فيبعث إليه فيجيء ، فيقولون : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال »[(١)]

قال أبو شامة: « فأبو بكر جمع آيات كل سورة كتابة لها من الأوراق المكتوبة بين يدي النبي ﷺ ، بإملائه ، وهو على وفق ما كان محفوظاً عندهم ، بتأليف النبي (ﷺ) ، وعثمان جمع السور على هذا الترتيب في مصحف واحد ، ناسخا لها من صحف أبي بكر .

---

(١) المقنع : ٧

وأما ما روى أن عثمان جمع القرآن أيضا من الرقاع ، كما فعل أبو بكر ، فرواية لم تثبت ، ولم يكن له إلى ذلك حاجة ، وقد كفيه بغيره ، فالاعتماد على ما قدمناه أول الباب . من حديث صحيح البخاري »[1].

ويقول الشيخ عبد الوهاب غزلان : « البحث عن الأشياء التي كتب فيها القرآن بين يدي النبي ﷺ ، ومقابلتها بالمحفوظ عند الصحابة ، كان في جمع أبي بكر »[2].

وعلى هذا : فلا يعجبني في هذا المقام ما يكتبه كثير من مؤلفي هذا العصر من أن لجنة المصاحف العثمانية كانت لا تكتب في هذه المصاحف إلا ما تحققت أنه قرآن ، وعلمت أنه هو الذي استقر في العرضة الأخيرة ، وأنها لم تكتب إلا ما كان متواترا ، وكذلك لم تكن تكتب ما نسخت تلاوته .

أقول لا يعجبني ممن يكتب في هذا المقام قوله هذا ، لأن هذا إن كان يقال في جمع أبي بكر ، فلا يقال في جمع عثمان ، لأن أبا بكر جمع القرآن كتابة ، بعد أن كان مفرقا ، فراعى فيه هذه الأشياء ، وأما عثمان فلم يجمعه من تفريق ، وإنما نسخ مصاحف من صحف منسوخة مجتمعة في مكان واحد ، مربوطة برابط واحد ، روعي فيها أثناء كتابتها ما يقوله هؤلاء المؤلفون .

وعلى ذلك فإن الأحرى في تسمية ما فعله عثمان أن لا يق عنه أنه جمع القرآن ـ وإن كان جائزا لغة واصطلاحا ـ إلا أن الأولى أن يقال : إنه نسخ المصاحف ، وهذا التعبير هو تعبير عثمان نفسه ، ﷺ ، حين أرسل إلى حفصة ، وقال لها : (أرسلي إلينا الصحف ، لننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك) .

عثمان يرسل المصاحف إلى الأقطار

وبعد أن قامت لجنة المصاحف العثمانية بنسخها من الصحف البكرية ، أمر الخليفة عثمان ﷺ بإرسال مصحف إلى كل قطر من أقطار خلافته ، ليقضي على التنازع الذي وصل إلى حد التكفير .

---

(١) المرشد الوجيز : ٧٥

(٢) البيان ، للشيخ عبد الوهاب غزلان : ٢١٣

وقد اختلف العلماء في عدد من المصاحف، التي كتبتها هذه اللجنة، فمنهم من يقول إنها أربعة، ومنهم من ينص على أنها خمسة، ومنهم من يذهب إلى أنها ستة، ومنهم من يبلغ بالعدد إلى الثمانية، ومنهم من يزيده إلى التسعة.

١ - قال أبو عمرو الداني في المقنع: «أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها على أربعة نسخ، وبعث إلى كل ناحية واحدا، الكوفة، والبصرة، والشام، وترك واحدا عنده، وقد قيل أنه جعله سبع نسخ، زاد إلى مكة وإلى اليمن، وإلى البحرين»[(١)].

فالعدد هنا أربعة، وقيل سبعة.

٢ - وقال ابن الجزري عن عثمان: «فكتب منها - أي من الصحف البكرية - عدة مصاحف، فوجه بمصحف للبصرة، ومصحف إلى الكوفة، ومصحف إلى الشام، وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفسه مصحفا، الذي يقال له الإمام، ووجه بمصحف إلى مكة، ومصحف إلى اليمن، ومصحف إلى البحرين»[(٢)].

فالعدد ثمانية.

٣ - ونص صاحب زاد القراء - كما نقل الزرقاني عنه - على أنها كانت ستة، حيث قال: «لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام، ونسخ منه مصاحف، فأنفذ منها مصحفا إلى مكة، ومصحفا إلى الكوفة، ومصحفا إلى البصرة، ومصحفا إلى الشام، وحبس مصحفا بالمدينة.

٤ - وقال الحافظان ابن حجر والسيوطي: «المشهور أنها خمسة»[(٣)].

٥ - ومن العلماء من نص على أن عثمان أرسل إلى القطر المصري بمصحف.

وعلى ذلك يتحصل من الأقوال السابقة أن لجنة المصاحف العثمانية قد نسخت تسعة مصاحف.

---

(١) المقنع: ١٠

(٢) النشر: ١/٧.

(٣) انظر فتح الباري: ٨/٦٣٧، والاتقان: ١/٦٠

ما نميل إليه في عدد المصاحف العثمانية

وإذا كان أبو عمرو الداني يقول : إن أكثر العلماء على أن عدد المصاحف أربعة ، وإذا كان كل من الحافظين ابن حجر والسيوطي : يقول : « المشهور أنها خمسة » وإذا كان آخرون يرجحون أنها ستة ، إلا أننا نميل مع من يزيد في عدد هذه المصاحف ، لا مع من يقلل منها ، ويؤيدنا في ذلك أمران : الأول السبب الذي من أجله كتبت هذه المصاحف . الثاني : الروايات التي رويت في إرسالها إلى الأقطار .

أما السبب الذي اقتضى كتابتها ، فهو كما سبق أن قلنا ـ القضاء على الفتنة التي كانت مشتعلة حينئذ ، وتأمين المسلمين مستقبلا من تكرارها .

فإذا عرفنا أن الخلافة الإسلامية في العهد العثماني ، قد ترامت أطرافها ، وتناءت أقطارها ، واستبحر عمرانها ، واختلط عربها بعجمها رجحنا قول من يزيد في عدد المصاحف ، على قول من يقلل من عددها ، وإلا فكيف يقضي على تلك الفتنة ؟ بل فما فائدة هذا العمل من عثمان ؟

أما الروايات التي رويت إرسال هذه المصاحف إلى الأقطار الإسلامية فإنها ترجح قول من يزيد على قول من يقلل ، ومن هذه الروايات ما يأتي :

١- أخرج البخاري عن أنس : « حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا » (١) .

٢- أخرج البيهقي في السنن الكبرى : « ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف » (٢) .

٣- أخرج ابن أبي داود في المصاحف : « حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق بمصحف ، من تلك المصاحف التي نسخوا » (٣) .

من أجل هذا نميل مع من يزيد في العدد ، لا مع من ينقص منه .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ، كتاب الصلاة ، باب الدليل على أن ما جمعه الصحابة كله قرآن : ٢ / ٤٢ .
(٣) المصاحف : ١٩ .

عثمان يحرق المصاحف الأخرى

وبعد أن أرسل عثمان ؓ إلى كل قطر بمصحف ، حتى لا تكون فتنة بين الناس في كتابهم ، وفساد كبير في دينهم ، أراد أن يبلغ هذا العمل من الفائدة قمتها ، فأمر بإحراق كل مصحف آخر ، مما كان بأيدي الناس ، حتى لا يكون للشيطان مدخل يلج منه في هذا الأمر ، وحتى لا يكون في القطر الواحد من يشذ عن قراءة كل أهله ، التي أخذوها عن المصحف الإمام .

أخرج البخاري في حديث الجمع العثماني عن أنس : « فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن ، في كل صحيفة ، أو مصحف أن يحرق ». جاء في بعض الروايات (أن يخرق) بالخاء المعجمة ، قال ابن حجر : « وفي رواية الإسماعيلي أن تمحى أو أن تحرق » ، وفي رواية أبي قلابة (فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار : إني قد صنعت كذا وكذا ، ومحوت ما عندي فأمحوا ما عندكم) ، والمحو أعم من أن يكون بالغسل أو التحريق ، وأكثر الروايات صريح في التحريق ، فهو الذي وقع ، ويحتمل وقوع كل منهما ، بحسب ما رأى من كان بيله شيء من ذلك ، وقد جزم عياض بأنهم غسلوها بالماء ، ثم أحرقوها ، مبالغة في إذهابها »[1] .

الأمة تحمد لعثمان فعله

ولأن توحيد كلمة الأمة واجتماع شملها ، لا يتأتى إلا إذا كانت مجتمعة على كتاب ربها ، ولأن من يستطيع أن يجمع شملها بذلك ، فله من الأمة قمة الطاعة ، ما دامت في المعروف ، ولأن من يفعل ذلك فله من الله ومن أهل السماء كمال المحبة ، ومن أمته وأهل الأرض تمام الرضا ، ولأن عثمان فعل ذلك كله ، فقد احتل عمله هذا من محبة الله وخلقه ما احتل ، ونال من رضاه ورضا الأمة ما نال .

قال البيهقي عن جمع عثمان فيما ينقله أبو شامة : « وذلك كله بمشورة من حضره من علماء الصحابة ، ﭬ ، وارتضاه علي بن أبي طالب ، ﭬ ، وحمد أثره فيه »[2] .

---

(١) فتح الباري : ٨/٦٣٧ .

(٢) عن المرشد الوجيز لأبي شامة : ٦٢ .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف بإسناده عن سويد بن غفلة قال : « قال علي في المصاحف : « لو لم يصنعه عثمان لصنعته » [1] .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا في المصاحف ، وأبو عمرو الداني في المقنع عن مصعب بن سعد قال : « أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، وقال : لم ينكر ذلك منهم أحد » [2] .

وجاء في المصاحف أيضا عن سويد بن غفلة الجعفي أنه قال : « والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب ﷺ ، سمعته يقول : (يا أيها الناس لا تغلو في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا ، في المصاحف ، وإحراق المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا جميعا) ، ثم قال بعد ذلك « والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل » [3] .

أما ما يروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ في هذا الشأن ، من أنه اعترض على فعل عثمان ، فإن هذا كان أول الأمر ، ثم لما علم صواب عثمان في ذلك ، وأن مصلحة الأمة فيما فعله عثمان ، رجع عن رأيه إلى رأي عثمان ، الذي أجمعت عليه الأمة كلها .

والدليل على رجوعه عن رأيه إلى رأي الأمة ، ما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بإسناده عن الجعفي ، في باب (رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان ﷺ المصاحف) قال : « فزعت فيمن فزع إلى عبد اله في المصاحف ، فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين ، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر ، فقال : « إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وإن الكتاب قبلكم كان ينزل من باب واحد ، على حرف واحد » [4] .

رحم الله عثمان ، ورضي عنه وأرضاه ، فلقد حفظ بهذا العمل وحدة الأمة ، بعد

---

(١) المصاحف : ١٢ .

(٢) المصاحف : ١٢ . والمقنع : ١٨ .

(٣) المصاحف : ٢٣ ، ٢٢

(٤) المصاحف : ١٨ .

أن كانت على شفا جرف هار ، كما أنقذها من التنازع في كتاب ربها ، بعد أن كادت تختلف فيه اختلاف اليهود والنصارى في كتبهم ، وكانت من ذلك قاب قوسين أو أدنى .

قال أبو مجلز : « يرحم الله عثمان ، لو لم يجمع الناس على قراءة واحدة لقرأ الناس القرآن بالشعر » .

وقال حماد بن سلمة : « كان عثمان في المصاحف ، كأبي بكر في الردة » .

وقال عبد الرحمن بن مهدي : « كان لعثمان شيئان ، ليس لأبي بكر وعمر مثلهما ، صبره نفسه ، حتى قتل مظلوما ، وجمعه الناس على المصحف »(١) .

سمات الجمع العثماني

إذا علمنا أن المصاحف العثمانية قد نسخت من الصحف البكرية ، أدركنا بسهولة أن سمات الجمع العثماني هي نفس سمات الجمع البكري ، ولذلك فنحن الآن في غنى أن نفردها بالحديث هنا ، كما يفعل أكثر من يكتبون في هذا الموضوع ، لأن هذا يوهم أن المصاحف العثمانية قد جمعت مرة أخرى من جديد ، من العظام والرقاع ، واللخاف والعسب ، ونحوها ، بل قال بهذا القول بعضهم ، وقد رددنا عليه قريبا .

ولكننا نريد أن نشير إلى سمة في المصاحف العثمانية ، كانت موجودة أيضا في الصحف البكرية ، ألا وهي خلو المكتوب من النقط والشكل ، فلقد أعطت هذه السمة فائدة عظيمة للمصاحف العثمانية ، لم يكن من المستطاع توافر هذه الفائدة بصورة كاملة في الصحف البكرية .

فنظرا إلى أن الصحف البكرية كانت تمثل مصحفا واحدا ، وأن المصاحف العثمانية كانت متعددة ، فلقد تمكن للصحابة أثناء كتابة المصاحف العثمانية تضمينها كل الأحرف السبعة ، فكانت في مجموعها متضمنة لها ، غير تاركة لحرف منها ، بخلاف الصحف البكرية فلم يكن من المستطاع تضمينها كل الأحرف السبعة ، وإن كانت قد تضمنت بعضها ، وذلك لأن بعض الألفاظ أثناء كتابتها لا تحتمل إلا قراءة واحدة ، بينما

---

(١) انظر ثناء هؤلاء العلماء في : المصاحف : ١٣ ، وجمال القراء : ١ / ٩٠ ، والمرشد الوجيز : ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩.

هي في الواقع لها أكثر من قراءة ، فاكتفى في الصحف البكرية برسم واحد ، أما المصاحف العثمانية فقد كتب فيها كل الأوجه موزعة على كل المصاحف .

السمة الظاهرة التي كانت للمصاحف العثمانية ولم يوجد في الصحف البكرية أنها كانت مرتبة السور ، كما هو محفوظ ومعلوم ، وكما هو مكتوب الآن في المصاحف التي بين أيدينا .

وما عدا ذلك فالمصاحف العثمانية هي صورة طبق الأصل للصحف البكرية ، التي اقترح كتابتها عمر بن الخطاب لتكون إماما يرجع إليه المسلمون وقت الحاجة .

مقارنة بين كل جمع وغيره في العهود الثلاثة

من خلال جولتنا السابقة حول جمع القرآن في كل من العهد النبوي ، والبكري ، والعثماني ، نستطيع أن يلخص مقارنة سريعة بين كل جمع وغيره في هذه العهود الثلاثة ، على النحو التالي :

١- فمن حيث الداعي إلى الجمع في كل عهد ، يتضح لنا :

أن سبب الجمع في العهد النبوي ، هو زيادة الاحتياط ، والمبالغة في توثيق النص القرآني ، وإيجاد مصدر آخر مكتوب يرجع إليه المسلمون وقت الحاجة ، ولذلك فما أن وجدت تلك الحاجة بعد معركة اليمامة في العهد البكري إلا وأتو بهذا المكتوب بين يدي النبي ﷺ ، والذي كان مفرقا في أشياء غير متجانسة ، ونسخوا منه الصحف البكرية المتجانسة ، وربطوها برابط واحد .

أما الداعي إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر فكان خشية ضياع شيء ، من صدور الحفاظ بموتهم ، أو استشهادهم .

أما في العهد العثماني : فكان الداعي إلى الجمع ، هو جمع كل قطر على قراءة معينة مأخوذة عن الرسول ﷺ ، فلا يشذ أحد عن المصحف الإمام الذي أرسل إلى قطره ، وبذلك يقضي على النزاع الذي وصل إلى حد تكفير بعضهم بعضا ، وحتى يؤمن على الأمة من حدوث مثل ذلك مستقبلا .

٢- تجريد الكتابة من المنسوخ تلاوة ، قدر مشترك في كل العهود الثلاثة ، أما في العهد النبوي ، فلئلا يلتبس الناسخ بالمنسوخ ، وأما في العهد البكري ، فلأن نزول القرآن قد تم ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يكتبون مما كتب بين يدي النبي ﷺ ، وأما في العهد العثماني ، فلأن المصاحف العثمانية منسوخة من المصاحف البكرية ، التي كانت خالية من كل ما نسخ تلاوة .

٣- كتابة القرآن في مكان واحد ، كان خاصا بالعهدين البكري والعثماني ، للدواعي التي سبق ذكرها الآن ، أما في عهد النبي ﷺ فكأن غير مجموع في موضع واحد ، بل كان مفرقا في الرقاع واللخاف ، والعسب وغير ذلك ، لأسباب أوجبت ذلك ، وقد نصصنا عليها أثناء جمع القرآن كتابة في العهد النبوي .

٤- تجريد الكتابة من النقط والشكل ، قدر مشترك في العهود الثلاثة ، ليحتمل اللفظ قدر الإمكان ، من الأحرف السبعة ما يحتمل ، ولذلك كانت المصاحف العثمانية في مجموعها شاملة لها كلها .

ترتيب الآيات في سورها كتابة قدر مشترك في العهود الثلاثة أيضا . إلا أنها في العهد النبوي لم يكن يربطها رابط واحد ، نظرا لعدم تجانس الأشياء المكتوبة فيها ، فكانت مبعثرة ، إلا أنها كانت معلومة للجميع ، أما في العهد البكري والعثماني فكانت في مكان واحد ، لتجانس ما كتبت فيه .

أما ترتيب السور كتابة : فلم يكن إلا في الجمع العثماني ، أما في العهد النبوي والبكري فلم تكن مرتبه كذلك ، ولكنهم كانوا يعرفون ترتيبها ، من إقراء الرسول ﷺ أياهم القرآن ، ومن قراءته في الصلاة وخارجها .

مصير الصحف البكرية والمصاحف العثمانية

وقد يسأل فيقول : أين هي الصحف البكرية - التي جمع فيها القرآن ؟ وأين هي المصاحف العثمانية التي أرسلت إلى الأقطار ؟

وبادئ ذي بدء نقول : ما رددناه كثيرا : إن المعول عليه هو الاعتماد على المحفوظ

في الصدور ، لا على المكتوب في السطور ، فلو لم يكتب القرآن أصلا ما ضره ذلك في شيء ، ما دام قد تم نقله في كل عصر بواسطة عدد يمثل التواتر .

أما الصحف البكرية : فقد ذكرنا أنها كانت عند أبي بكر ثم عند عمر ، حياتهما ، ثم أوصى بها عمر لتكون عند أم المؤمنين ابنته حفصة رضي الله عنها ، فكانت عندها ، ثم لما تولى عثمان الخلافة ، واحتاج إلى نسخ المصاحف ، أرسل إليها ، ثم نسخها منها ، ثم ردها إليها مرة أخرى ، فلما كان زمن معاوية ، وكان مروان بن الحاكم أميرا على المدينة من جهته ، أرسل مروان إلى حفصة لتعطيه هذه المصاحف ، فأبت ، فلما كان يوم وفاتها ، وعقيب دفنها أرسل مروان إلى أخيه عبد الله بن عمر ليأخذ هذه الصحف ، فأرسلها إليه فقام بحرقها [١] .

أما المصاحف العثمانية : فالبعض ينص على وجودها في بعض المكتبات كمكتبة استانبول بتركيا ، والبعض يتشكك في وجودها الآن .

وقديما بعض الوقت قال ابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ : « وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام ، بجامع دمشق ، عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديما بمدينة طبرية ، ثم نقل منها إلى دمشق ، في حدود ثماني عشرة وخمسمائة ، وقد رأيته كتابا عزيزا ، جليلا عظيما ضخما ، بخط حسن مبين ، قوي ، بحبر محكم ، في رق أظنه من جلود الإبل ، والله أعلم » [٢] .

ومع بعض الطلاب الأتراك الآن مصحف يقولون عنه أنه مصور عن المصحف العثماني الإمام ، الموجود في خزانة مكتبة استانبول ، بتركيا ، وهو غير منقوط ، ولا مشكول .

والشيخ الزرقاني يتشكك في مثل هذه المصاحف التي يدعي البعض الآن أنها هي المصاحف العثمانية الأئمة ، فيقول :

« ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن ، فضلا عن

---

(١) انظر في ذلك المصاحف لابن أبي داود صفحة ٢١ ، وفتح الباري : ٨ / ٦٣٧ .
(٢) فضائل القرآن : ١٥ .

تعيين أمكنتها ، وقصارى ما علمناه أخيرا أن ابن الجزري رأى في زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى في مصر مصحفا أيضا .

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب ، والآثار في مصر ، ويقال عنها أنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيرا في صحة هذه النسبة إلى عثمان ﷺ ، لأن بها زركشة ، ونقوشا موضوعة ، كعلامات للفصل بين السور ، ولبيان أعشار القرآن ، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضا ، كما علمت .

نعم أن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني ، والمنسوب إلى عثمان ﷺ مكتوب بالخط الكوفي القديم ، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً ، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي ، حيث رسمه فيه كلمة (من يرتدد) من سورة المائدة ، بدالين اثنين ، مع فك الادغام ، وهي فيها بهذا الرسم فأكبر الظن ، أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية ، على رسم بعضها »[١]

وأيا ما كان مذهب المبعض ، الذي يؤيده الواقع حالياً ، أو مستقبلاً أو يخالفه ، في وجود عين المصاحف العثمانية ، التي كتبت بأيدي الصحابة ، أو عدم وجودها ، فإن ذلك قلنا سابقاً ، لا يضير القرآن في شيء ، لأن المعول عليه هو الحفظ في الصدور ، والتلقي شفهياً ، بطريق يحصل به التواتر في كل عصور ، وليس الكتابة في السطور ، والأخذ من بطون المصاحف .

يقول الدكتور أبو شهبة : « ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئًا مادام المعول عليه هو النقل ، والتلقي ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ ، وذلك متواتراً مستفيض ، على أكمل وجه في القرآن »[٢] .

وبالإضافة إلى ما سبق : فإنه من المعلوم أن المصاحف العثمانية هذه قد نسخ منها النساخ في كل عصر ، الآلاف المؤلفة ، بما هو صورة طبق الأصل منها ، وقد أجمعت الأمة

---

(١) مناهل العرفان : ١/ ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

كلها على أن هذه الآلاف لا تخالف عين ما كان في المصاحف العثمانية ذاتها ، في أي حرف من حروفها ، وعلى ذلك فكأن عين المصاحف العثمانية موجودة بالفعل ، فالشبه الكامل بين ما هو منسوخ منها ، وبينها ذاتها ، كالشبه القائم بين كتاب مصور بالآلات الحديثة عن كتاب آخر ، أنه يحل محله تمام بتمام .

وعلى ذلك فلا يضر القرآن ولا المسلمين عدم بقاء عين المصاحف العثمانية اليوم.

اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة

تكرر أثناء الحديث عن الجمع البكري والعثماني ، ذكر الأحرف السبعة مرارًا ، ولم نشأ حينئذ التوسع بأكثر مما تعرضنا له ، وأرجأنا ما رأينا إرجاءه إلى هنا ، ونود أن نشيرها إلى أمرين مهمين في هذا الموضوع ، وبشيء وسط بين الإيجاز والإطاب ، نظراً لعظيم أهميتهما وشديد اتصالهما بموضوع جمع القرآن الكريم .

الأمر الأول : معنى الأحرف السبعة .

الأمر الثاني : اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها ، لا على حرف واحد .

أما الأمر الأول وهو معنى الأحرف السبعة :

فهو مبحث مستقل من مباحث علوم القرآن ، ويفرده العلماء بالتأليف ، ويجعلونه مستقلاً بالتصنيف ، وعلى ذلك : فإن بيان هذه الأحرف بالتفصيل ، وتوضيح مذاهب العلماء فيها ، وتصويب ما نراه صائباً ، وتخطئة ما نراه خاطئاً ، يعتبر موضوعاً آخر ، غير موضوعنا الذي أفردنا له هذا الكتاب ، وهو جمع القرآن الكريم ، خاصة أن أقوال العلماء في ذلك وصلت في عدد بعضهم إلى أربعين قولاً ، ولكن يكفينا أن نشير إلى ما نميل إليه في هذا الموضوع ، فنراه ـ من وجه نظرنا ـ صواباً إن شاء الله .

حقيقة أنني بعد كثرة النظر ، وطول الفكر في هذا الموضوع ، وجدت أن أي قول من هذه الأقوال لا يخلو منجملة اعتراضات قوية عليه .

ومع ذلك فلقد لفت هذا الرأي نظري ، ونظرت إلى الاعتراض الموجه إليه

وتوصلت إلى إجابة مقنعة ـ في نظري ـ عليه ، بحيث أصبح ـ في نظري ـ جديراً بالقبول ، دون الآراء الأخرى .

وقبل أن نذكر هذا القول ثم الاعتراض عليه ، ثم الرد على هذا الاعتراض . وبيان أحقيته بالصدارة على غيره ، ويحسن بنا أن نعرف ما المقصود بكلمة (حرف) في ميدان قراءة القرآن الكريم .

يقول ابن منظور في لسان العرب : «كل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفاً ، تقول هذا في حرف ابن مسعود ، أي في قراءة ابن مسعود ، قال ابن سيده : والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه »[1]

وعلى ذلك : فإن كل وجه تقرأ به أي لفظ من ألفاظ القرآن يطلق عليه حرف ، مهما كان نوع هذا الوجه .

فقراءة اللفظ بالزيادة وجه وحرف ، وبالنقصان وجه وحرف آخر ، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ في سورة التوبة[2] بزيادة (من) ، وبدونها ، فهذان وجهان وحرفان ، وكذلك اللهجات ، فكل لهجة من لجهات العرب يطلق عليها وجه وحرف ، وكذلك الاختلاف في الألفاظ ذاتها أيضاً نحوا (فتبينوا) و (فتثبتوا) من سورة الحجرات ، فهذان وجهان وحرفان ، وهكذا .

أما رأي القاضي عياض في الأحرف السبعة ، فقد ذهب إلى أن هذه الأحرف ليس منحصرة في سبعة فقط ، بل المراد بها الكثير ، وذلك لأن العرب حينما تريد التكثير في عدد ، فإن كان آحاداً ذكرت العدد سبعة ، وإن كان عشرات ذكرت العدد سبعين . وإن كان مئات ذكرت العدد سبعمائة ، والنصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية في ذلك مشهورة .

وقد اعترض العلماء على القاضي عياض ، في رأيه هذا ، حيث قالوا : أن المراد هو حقيقة العدد ، الذي بين الستة والثمانية ، واستدلوا على صحة اعتراضهم هذا بمثل ما

---

(١) لسان العرب (حرف)

(٢) الآية رقم : ١٠٠ .

جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، أن رسول الله ﷺ قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف »[(١)]

قال العلماء : فهذه الاستزادة من حرف إلى سبعة أحرف ، تدل على أن العدد سبعة يراد به حقيقته المنحصرة بين الستة والثمانية .

هذا الاعتراض يبدو للناظر فيه ، أن فيه من الوجاهة والقوة ما يأتي على رأي القاضي عياض فينسفه من قواعده نسفا .

ولكني بفضل الله تعالى استطعت - من خلال جمع الأحاديث الخاصة بالأحرف السبعة - أن أصل إلى اجابة شافية على هذا الاعتراض ، يترتب عليها - في نظري - أن يكون القاضي عياض أولى بالقبول من غيره . .

فلقد ظهر لي بعد جمع الأحاديث في هذا الموضوع، والتدبر الشديد فيها ، أنها تنقسم إلى قسمين ، قسم مجمل مختصر ، يدل على الإذن بقراءة القرآن على سبعة أحرف ، وقسم مفصل مطول ، يدور فيه حوار بين جبريل والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ينتهي هذا الحوار المفصل إلى الأذن بقراءة القرآن على سبعة أحرف .

وإذا أمعنا النظر في هذا القسم المطول ، فإننا سنجد أحاديثه كلها تتفق في شيء ملفت للنظر ، ألا وهو أن الرسول (ﷺ) ، حينما طلب المزيد من الأحرف التي عليها تقرأ الأمة القرآن ، تدرج في الأذن من حرف ، ثم إلى حرفين ، ثم إلى ثلاثة ، ثم لما طلب المزيد قفز الإذن من العدد ثلاثة إلى العدد سبعة مباشرة ، دون ذكر للعدد أربعة ، وخمسة ، وستة ، مما يفهم منه بوضوح الأذن بقراءة القرآن على حروف كثيرة ، غير منضبطة بعدد معين ، بشرط أن تكون تلك الأحرف مأخوذة عن الرسول ﷺ .

ومثال ما جاء في هذا الحوار المطول ، وقفز الإذن فيه من العدد ثلاثة إلى العدد سبعة ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي (ﷺ) كان عند أضاة[(٢)] بني

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب (٥) ، ومسلم في كتاب المسافرين ، باب (٢٧٤) .
(١) الاضاة : الماء المستنقع .

غفار ، قال : فأتاه جبريل عليه السلام، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا » [1] .

فهذا القفز من الثلاثة إلى السبعة مباشرة ، بإسقاط العدد أربعة ، وخمسة ، وستة ، يرجّح أن المراد ليس حقيقة السبعة ، المنحصرة بين الستة والثمانية ، وإنما المراد الكثرة ، جريًا على عادة العرب ، حينما يريدون التكثير في الآحاد ، كما سبق آنفًا .

وعلى هذا نرجح أن المراد بالأحرف السبعة ، كل الأوجه التي قرأ بها رسول الله ﷺ ، وهي أكثر من سبعة أوجه ، أو أحرف ، كما هو الواقع في كتابة القرآن ، وفي المنطق بتلك الأوجه والأحرف .

لذلك فإننا نميل إلى رأي القاضي عياض بأن عدد السبعة لا يراد به حقيقته وإنما يراد به الكثير ، وهو الذي تؤيده الأحاديث المطولة في الأحرف السبعة ، ويؤيده واقع النص القرآني المكتوب والمتلو على حد سواء .

أما من يقول بحقيقة العدد فهو مطالب بتعيين هذه الأحرف ، بحيث لا تقل ولا تزيد عن سبعة ، وكل الذين عينوها بما لا يقل ولا يزيد عن هذا العدد ، ولم تخل آراؤهم من جملة اعتراضات قوية خاصة أولئك الذين قالوا بأنها لغات سبع ، أو لهجات سبع ، أو ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي . . . .

وذلك لأن اللغات العربية التي وردت في القرآن أكثر من سبع وإن كانت كلها قرشية ، إما بالأصل ، وإما بالصيرورة ، لأن قريشاً كانت مركز الإشعاع الكلامي والتجاري والاجتماعي ، وكانت تأخذ من كل القبائل أفصح لغاتها وتتكلم بها ، فنزل القرآن بلسان قريش الذي تتحدث به ، سواء أكان بالتأصيل ، أم بالتصيير ، إلى غير ذلك من الاعتراضات الموجهة إلى هذا الرأي .

---

(١) مسلم في كتاب المسافرين ، باب (٢٤٧) .

وكذلك الذين قالوا أن المراد بالأحرف السبعة لهجات سبع ، فقولهم هـذا مرجـوح أيضاً .

١ - لأن اللهجات العربية أكثر من سبع .

٢ - ثم هم مطالبون بتعيين هذه اللهجات ، لتعضيد رأيهم .

٣ - ثم إن الاختلاف الذي وقع بين المسلمين ، سواء أكان في حياة الرسـول (ﷺ) أم بعـد وفاتـه لم يكـن اختلافـاً في اللـهجات ، وإنمـا كـان في ذات الألفـاظ ، فالختلاف اللهجات ذاتها ، بدليل أن عمر بـن الخطـاب وهشـام بـن حكـيم ، اللذين اختلفا في قراءة القرآن ، واختصما إلى رسول الله (ﷺ) في ذلك ، وأقر قراءة كل منهما ، كانت لغتهما واحدة ، ولهجتهما لهجة واحدة ، حيث كان كل واحد مهما قرشياً .

أما ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي من تحديد هذه السبعة بقوله : «الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف :

الأول : اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

الثاني : اختلاف تصريف الأفعال من ماض ، ومضارع ، وأمر .

الثالث : اختلاف وجوه الإعراب .

الرابع : الاختلاف بالزيادة والنقصان .

الخامس : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

السادس : الاختلاف بالإبدال .

السابع : الاختلاف في اللغـات ـ يريـد اللـهجات ـ كـالفتح والإمالـة والترقيـق ، والتفخيم والإظهار ، والإدغام ، ونحو ذلك »[1]

---

(١) انظر فتح الباري : ٨ / ٦٤٦ ، ومناهل العرفان : ١ / ١٥٥ .

أقوال ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي ومن تبعه كالشيخ الزرقاني في مناهل العرفان وغيره لا يخلو من اعتراض، وذلك لأن ما ذكره الرازي هو في حقيقته أكثر من سبعة أحرف، فالوجه الأول الذي ذكره، وهو اختلاف الأسماء يضم أكثر من حرف، ومن قرأ (أماناتهم) بالإفراد، فقراءته حرف، ومن قرأ (أماناتهم) بالجمع فقراءته حرف آخر، والوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة حرفان، وليس حرفاً واحداً، فمن قرأ (تجري من تحتها الأنهار) من سورة التوبة بدون (من) فقراءته حرف، ومن قرأ (من تحتها) بإثبات (من) فقراءته حرف آخر، والوجه السابع وهو اللهجات ليس حرفاً واحداً، ظاهر جلي فإننا لا نعتبر كل الأوجه التي ذكرها، بل كل لهجة بمفردها حرف، وكذلك بقية الأوجه التي ذكرها، والتي تنص بصراحة بزيادة الأحرف عن سبعة، وليست منحصرة في سبعة، مما يضعف هذا الرأي بسهولة.

وعلى ذلك فإني أرجح رأي القاضي عياض في هذا الموضوع، وأن المراد بالأحرف السبعة، كل الأوجه التي كان يقرأ رسول الله (ﷺ) بها القرآن، سواء أكانت لهجات، أم غيرها، لما قدمناه من أدلة نراها من وجهة نظرنا كافية في ترجيح هذا الرأي على غيره.

هذا هو رأينا فيها، ولا نملك هنا إلا أن نقول ما قاله مصطفى صادق الرافعي وهو يتحدث عنها: (وما داموا قد اختلفوا فدعنا نختلف معهم، ونأخذ بالأشبه والأمثل، مما يوافق القرآن نفسه، وقد أنزله الله الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، فإن ذهبت مذهبنا، وإلا فخذ ما أحببت »[1]

أما الأمر الثاني وهو :

اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة

فقد ذهب إلى ذلك جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، حيث قالوا أن المصاحف العثمانية قد اشتملت في مجموعها عليها كلها.

قال ابن الجزري: «وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف، وأئمة المسلمين، إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ٦٨.

جامعة للعرضة الأخير ، التي عرضها النبي (ﷺ) ، على جبرائيل عليه السلام ، متضمنة لها ، ولم تترك حرفاً منها . » إلى أن قال : « وهذا القول هو الذي يظهر صوابه ، لأن الأحاديث الصحيحة ، والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له »[١]

ومع أن ذلك المذهب الذي قال به الجمهور ، سلفاً وخلفاً ، هو الذي تؤيده البراهين الصحيحة ، إلا أن البعض كالإمام ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ ومن لف لفه من بعهد ، يرى أن عثمان أسقط من هذه المصاحف ستة أحرف ، وأبقى حرفاً واحدًا ، ورفض أن يقرأ أحد بغيره .

يقول ـ رحمه الله ـ بالحرف الواحد : « الأحرف السبعة التي أنزال الله بها القرآن هي لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، وقصدي ، ونحوي ، و قربي ، و نحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق ، وتتفق فيه المعاني »[٢]

ثم قال بالحرف الواحد أيضاً : « إن الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءاته ، وخيرت في قراءته بأي حرف الأحرف السبعة شاءت ، فرأت ـ لعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ـ قراءته بحرف واحد ، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية »[٣] .

ونرد على ابن جرير هذا ، في عجالة سريعة ، فنقول : أنه رحمه الله قد أخطأ هنا خطأين ، الخطأ الأول : تفسيره للمعنى المراد من الأحرف السبعة ، والخطأ الثاني : ذهابه إلى ان الأمة أجمعت على حرف واحد ، ورفضت الأحرف الستة الأخرى .

أما خطأه الأول : وهو تفسيره لمعنى الأحرف السبعة ، بقوله أنها لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، فهو خطأ ظاهر جلي . . .

١ ـ وذلك لأن اللغات الواردة في القرآن لا تنحصر في سبع لغات ، بل أكثر ، وإن كانت كلها ـ كما قلنا سابقاً ـ قرشية ، إما بالتأصيل ، وإما بالتصيير .

---

(٢) النشر في القراءات العشر : ١ / ٣٦ .

(٣) جامع البيان ، لابن جرير الطبري : ١ / ٥٧ ، ٥٨ ، ط . دار المعارف .

(٤) المصدر السابق : ١ / ٥٨ ، ٥٩ .

٢ - ولندرة الكلمة التي يوجد لها سبعة مرادفات في القرآن .

٣ - ولأن في تفسيره بهذا المعنى قصوراً شديداً ، حيث لم يشمل أوجه القراءات الأخرى المتعددة ، والتي لا زال القرآن يقرأ بها إلى اليوم .

أما الخطأ الثاني : وهو ذهابه إلى أن عثمان جمع الناس على حرف واحد ، ورفض القراءة بالأحرف الأخرى الستة ، وحذفها من جميع المصاحف ، فهو قول يحتاج إلى وقفة طويلة ، ولكننا في هذه العجالة الشديدة ، نشير خطئه في هذا بما يأتي :

١ - قوله أن الأمة أجمعت على حرف واحد ، دون الأحرف الستة الباقية ، قول عار عن الصحة ، ولا يعضده أي دليل .

بل يستحيل عليهم أن يفعلوا ذلك ، لأن هذا يؤدي إلى ضياع أحرف ستة ، نزل بها القرآن ، مع عدم نسخها .

٢ - والدليل على بقائها إلى اليوم ثلاثة أمور :

(أ) الأمر الأول : استمرار اختلاف العلماء في تعيينها إلى وقتنا هذا ، ومع أن هذا الاختلاف إلى الآن ما زال قائماً إلا أن الأمة تكاد تجمع على بقائها إلى اليوم ، ولم يشذ عن قول الجمهور إلا النذر اليسير .

(ب) الأمر الثاني : ما نشاهده إلى الآن ، في جميع الأقطار الإسلامية ، ومن أن لكل قطر قراءة خاصة ، ومتواترة ، وتختلف في بعض حروفها عن الأقطار الأخرى .

(جـ) الأمر الثالث : ما جاء في بعض الأحاديث من تعليل الرسول (ﷺ) ، طلب الزيادة من هذه الأحرف ، بأن في أمته المرأة العجوزة ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية والأمي ، وكل هذه الأنواع ما زالت موجودة إلى اليوم ، بل إلى أن تقوم الساعة ، فلا يعقل أن يكون التخفيف عن هذه الأنواع خاصاً بعهده (ﷺ) ، ولا سيما وأن دعوته عامة إلى كل الثقلين وخالدة خلود الزمن .

أخرج الترمذي في سننه ـ قال عنه حسن صحيح ـ عن أبي بن كعب قال : « لقي

رسول الله (ﷺ) جبريل ، فقال : يا جبريل أني بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز ، الشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، قال يا محمد : إن القرآن أنزل على سبعة وأحرف »[1]

٣ - إذا كان ابن جرير ومن لف لفه ، يرون أن عثمان قد حذف من المصاحف ستة أحرف ، وأبقى حرفاً واحداً ، ليكون ذلك وسيلة للقضاء على ما وقع من تنازع بين المسلمين في قراءة القرآن ، فإنهم في ذلك مخطئون .

فعثمان لم يتخذ هذه الوسيلة ، كما لم يتخذها من قبل رسول الله (ﷺ) حينما تنازع بعض الصحابة في القراءة ، فلم يلغ (ﷺ) أحرفاً وأبقى على حرف ، حتى تتحد قراءات الجميع ، بل أقر قراءة الجميع ، وكذلك فعل عثمان ، فلم يلغ أي حرف ، فضلاً عن ستة أحرف ، بل كتب مصاحف متعددة تشمل في مجموعها ، كل الأحرف وأرسل إلى كل قطر مصحفًا ، يوافق قراءة من نزل بينهم من الصحابة ، حتى يجتمع القطر كله على قراءة واحدة .

٤ - ثم أليس من حقنا أن نتسائل قائلين : إذا كانت هناك أحرف ستة قد منع عثمان النساخ من إثباتها في المصاحف ، ورفض من الأمة القراءة بها ، وأجمع الكل على فعله ، فأين هذه الأحرف الستة من كتب التراث ، هل محيت من الوجود امحاءً كاملاً ، وزالت من الدنيا زوالاً شاملاً ، بحيث أصبحت في خبر كان ، فلم يعد لها ذكر في ذاكرة الزمان ؟ إن هذا لشيء عجاب . .

يقول الشيخ الزرقاني : عليه رحمة الله في هذا الصدد : « ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان ، ﷺ ، قضي عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد ، في القراءة ، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة ، بابقاء الستة أحرف الباقية ، للتاريخ ، لا للقراءة ، مع أن الضرورة تقدر بقدرها ، وهذه الستة أحرف لم تنسخ ، لا تلاوة ولا حكما ، حتى تذهب بجرة قلم كذلك ، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده ، في أعظم مرجع ، وأقدس كتاب ، وهو القرآن الكريم على حين أن الصحابة رضوان الله

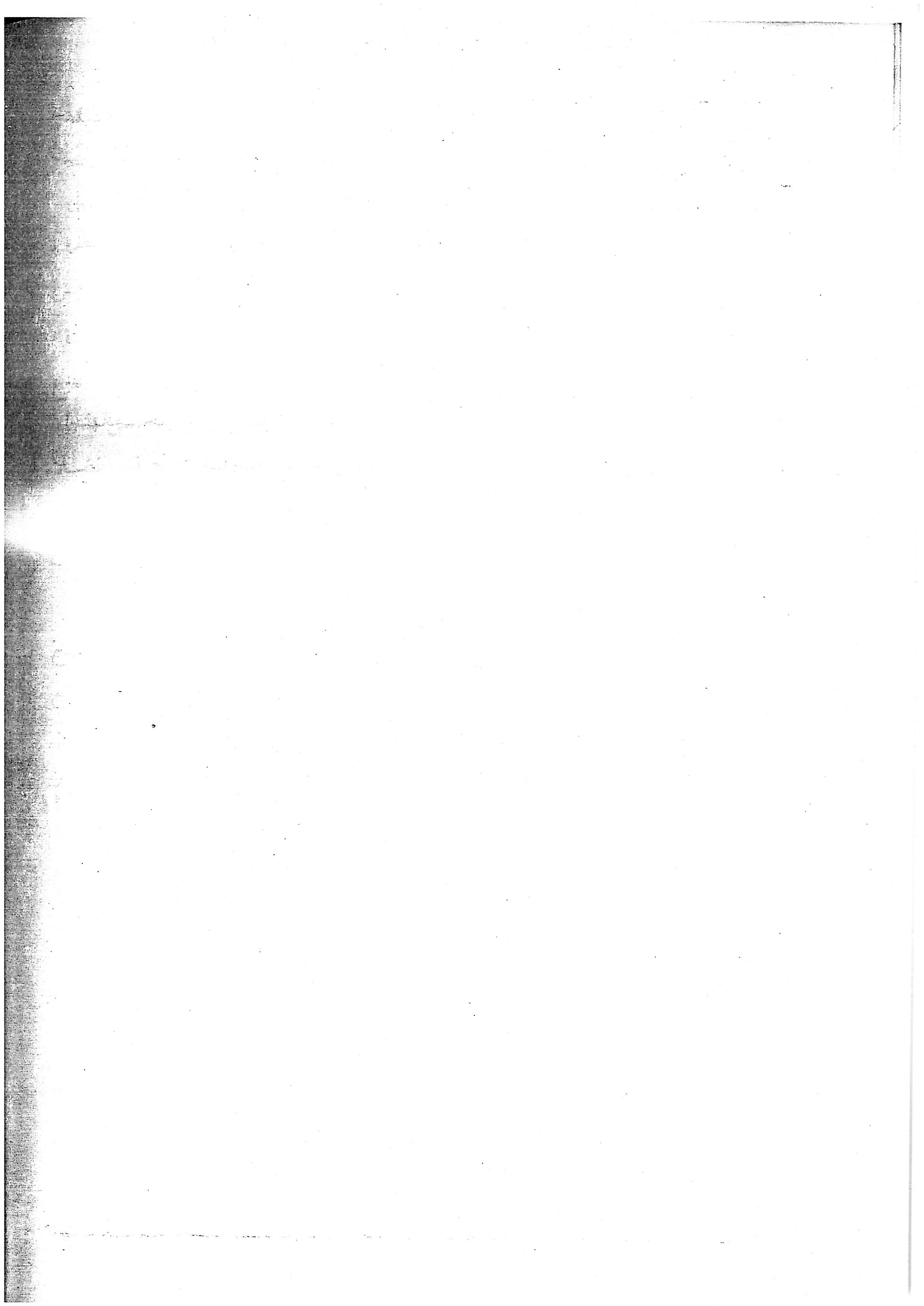
---

(١) الترمذي ، كتاب القراءات ، باب (١١) .

عليهم أجمعين ، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ، ونسخت أحكامها جميعاً ، وعلى حين انهم حفظوا قراءات شاذة في القرآن ، ثم نقلت إلينا ، وكتب لها الخلود إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ، بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة ، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة ، ونصوا على حكم كل منها ، وعلى اهمال العمل بها »

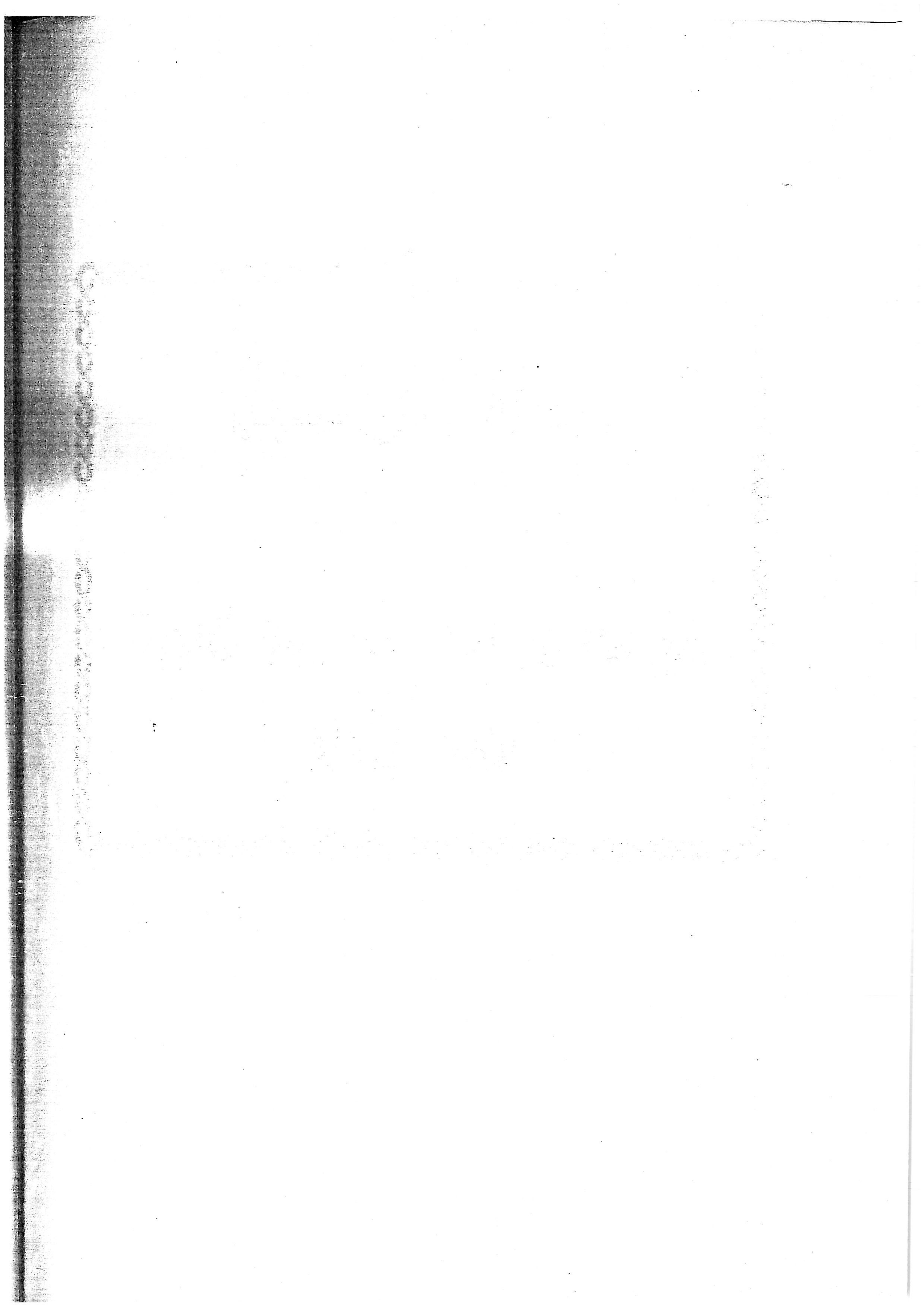
وعلى ذلك نستطيع أن نقول بكل ثقة ويقين : أن المصاحف العثمانية في مجموعها قد اشتملت على كل الأحرف السبعة ، ولم يحذف من مجموعها حرف واحد . فضلا عن ستة كاملة ، كما ذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه ، عفا الله عنهم ، وجزاهم عن اجتهادهم خيراً ، وإن كانوا مخطئين .





الفصل السادس

شبهات حول جمع القرآن الكريم والرد عليها



شبهات حول جمع القرآن الكريم والرد عليها

نظرًا للحقد الظاهر ، الذي لم يستطع أعداء الإسلام إخفاءه تجاه القرآن الكريم ، وتجاه من آمنوا به ، فقد وضعوا علة شبهات للمسلمين في أقدس المقدسات وهو القرآن الكريم ، الذي يستمدون منه عقيدتهم وعبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم ، وهم يأملون بشبهاتهم هذه أن لا يخلو لهم الأمر من أحد مكسبين :

١- أما أن يقع في شراك هذه الشبهات بعض الجهلة من المسلمين فيكفروا بالقرآن كما كفروا هم به فيكونوا سواء .

٢- وإما أن يشتغل علماؤهم بالرد على هذه المفتريات ، فيضيع وقتهم في هذا الرد ، ولا ينشغلوا بإظهار عظمة الإسلام ، ونشر نوره بين البلاد والعباد ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

ولم تقتصر هذه الشبهات -للأسف - على من رفعوا لواء الكفر بالقرآن الكريم ، ولكننا وجدنا بعض الشيعة الذين يدعون الإسلام ويزعمون مشايعة آل البيت وحب الرسول ﷺ يشتركون في اختلاق الافتراءات .

ونستطيع أن نقسم هذه الشبهات إلى خمسة أنواع رئيسية :

١- شبهات تدعي أن القرآن كله أو بعضه غير متواتر .

٢- شبهات تدعي أن النساخ أهملوا في كتابة المصاحف ، مما ترتب على هذا الإهمال أخطاء نحوية ، مازالت موجودة في هذه المصاحف إلى الآن .

٣- شبهات تدعي وقوع زيادة في القرآن الكريم .

٤- شبهات تدعي وقوع نقص في القرآن الكريم .

٥- شبهات تدعي تحريف ألفاظ من القرآن الكريم بإزالة ألفاظ ، و وضع ألفاظ أخرى مكانها .

وسنقوم الآن بعون الله وتوفيقه بالحديث عن هذه الشبهات وردها بشيء من الوسطية ، بين الإيجاز والإطناب ، وحتى لا يمل القارئ ، مراعين في ذلك أن لا تكون هذه الوسطية مخلة بالرد على تلك الشبهات[1] .

النوع الأول من الشبهات

شبهات تدعي أن القرآن كله أو بعضه غير متواتر

فقد وضعوا بعضًا من الشبهات للطعن في تواتر القرآن كله أو بعضه ، وقد تحدثنا عن شبهتين منها ، أثناء الحديث عن جمع الصحابة للقرآن ، حفظًا ، وكتابة ، فأثناء الحديث عن جمعهم حفظًا تعرضنا للشبهة السخيفة ، التي حاولوا تقويتها بحديث أنس (لم يجمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ غير أربعة ، وفندنا تلك الشبهة .

وأثناء الحديث عن جمعهم كتابة تعرضنا لشبهتهم عن عدم تواتر الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة ، وعدم تواتر آية الأحزاب «من المؤمنين رجال»

والآن نتعرض لـ :

الشبهة الثالثة

من هذا النوع ، الذي يطعن في تواتر القرآن ، حيث يقولون :

ورد عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «يا معشر المسلمين ، أعزل عن نسخ المصاحف ، ويتولاه رجل –والله– لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر».

واستنتجوا – بحقدهم على القرآن وأهله – من هذا الأثر أن ابن مسعود يطعن بكلامه هذا في جمع القرآن وتواتره ...

---

(١) ملاحظة : جاءت هذه الشبهات منثورة في كتب عدة للمستشرقين ونقلها عنهم بعض المسلمين للرد عليها ، ومن تلك الكتب : كتاب ميزان الحق للمستشرق الإنجليزي سنكلير تسدل ، وكتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهير ، وكتاب : المستشرقون والقرآن ليوسف لقمان الفلبيني ، وكتاب مناهل العرفان للزرقاني ، وغيرها .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن قصدهم الخبيث قد بدا من اقتطاع هذه العبارة من كلام ابن مسعود دون ذكر ما سبقها ، وما لحقها من عبارات الرواية ، حتى يموهوا بكلام ابن مسعود على الناس ، ليفهموا منه انه قصد الطعن في عملية الجمع ذاتها ، فيكون طعنه هذا طعنًا في سلامة القرآن وتواتره .

ونص الرواية كما أخرجها الترمذي هكذا : «قال الزهري : فأخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين : أعزل عن نسخ كتابة المصحف ، ويتولاها رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر ، يريد زيد بن ثابت ، وجاء في نهاية هذه الرواية : «قال الزهري : فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال ، من أفاضل أصحاب النبي ﷺ » قال الترمذي : حديث حسن صحيح[1] .

فمن خلال ألفاظ هذه الرواية نرى بوضوح أن ابن مسعود لا يطعن –ولو بالإشارة من أقصى بعد – في سلامة الجمع القرآني وتواتره ولكنه يرى من وجهة نظره الخاصة أنه أولى من زيد في نسخ المصاحف ، وانظر معي في هذه العبارة التي أسقطها أولئك الماكرون «أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف » فالذي يفهم منها أنه كره لزيد ذلك ، ولا يفهم منها طعنه في سلامة الجمع ، وتواتر القرآن .

٢- ويدل كلام ابن مسعود نفسه على أن الذي كرهه هو إسناد العمل لزيد ، لا غير ، حيث قال : « أعزل عن نسخ كتابة المصحف »، وحيث قال (ويتولاها رجل) يقصد زيد بن ثابت .

٣- وإذا كان ابن مسعود يرى أنه أحق من زيد في هذا نظرًا لكبر سنه ، ونظرًا لكفر أبي زيد فهو بهذا مخطئ . . ، لأن الكون ونظامه لو سير بهذا المفهوم لاختل توازنه ، وشاع فيه الاضطراب ، وعمت الفوضى ، فاعتبار السن ليس

---

(١) الترمذي ، كتاب التفسير ، تفسير سورة التوبة .

هو الشرط الأول في مثل هذه الأمور ، ولا في أمور كثيرة أخرى ، مثل الإمامة العظمى والقضاء ، والإمامة في الصلاة ، وقيادة الجيوش ، ألا ترى أن الرسول ﷺ قد أمر أسامة بن زيد ، وهو فتى في مقتبل العمر لم يجاوز التاسعة عشر عامًا ، لقتال الروم ، وفي هذا الجيش كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وغيرهم !

هذا من ناحية السن ، أما من ناحية كفر أبي زيد ، فما ذنب زيد في ذلك ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها ، فهل يمنع زيد من جمع القرآن لأن أباه كان كافرًا ، رغم اتصافه بصفات لم توجد مجتمعة في واحد غيره ؟

المسألة إذن مسألة تقدير ، وقد قدرتها الأمة كلها ، ممثلة في خليفتيها أبي بكر ، وعثمان ، فوجدت أن كفة زيد في هذا أرجح من كفة ابن مسعود ، وقد ذكرنا تلك الصفات في الجمع البكري ، فليرجع إليها هناك .

٤- ثم إن كان ابن مسعود كره ذلك لزيد ، فإن زيدًا لم ينفرد بالجمع بل شاركته فيه الأمة كلها ، كما وضحنا ذلك في موضعه ، فلا مجال للطعن في تواتر القرآن الكريم إذًا من عبارة ابن مسعود هذه .

٥- لو افترضنا جدلاً -وهذا لم يحدث على الإطلاق - أن ابن مسعود طعن في القرآن وتواتره ، فإن طعنه هذا لم يدم ، ولكن سرعان ما رجع عنه ، بدليل ما ثبت عنه أنه قدم مصحفه ليحرق مع ما حرق من مصاحف أخرى ، وبدليل أن قراءة عاصم مأخوذة عنه ، ومتصلة برسول الله ﷺ ، وهي تلك التي يقرأ بها المسلمون إلى اليوم ، وقام الإجماع على صحتها وتواترها .

٦- ولو ذهبنا مع هؤلاء الأفاكين الكذابين إلى أقصى ما يشتهون من هذا الأثر عن ابن مسعود ، وسلمنا لهم جدلاً بأن ابن مسعود أراد بكلامه هذا أن يطعن في القرآن الكريم وتواتره وأن طعنه هذا استمر إلى أن مات ، فإن ذلك لا يضير القرآن في شيء ولا يخرق له تواتره الثابت إلى يوم الدين ، فليس من شرط

التواتر أن لا يخالف فيه مخالف ، بل لو انتقل في كل طبقة بعدد يحصل بهم التواتر ، ويستحيل عادة اتفاقهم على الكذب لعد ذلك تواترًا مقبولاً ، حتى لو خالف في ذلك المئات والمئات .

النوع الثاني من الشبهات

أما النوع الثاني من الشبهات ، وهو الذي يدعون به أن النساخ قد حدث منهم إهمال في كتابة النص القرآني ، مما يترتب على ذلك أخطاء نحوية ، فذكروا لنا مثلاً على ذلك شبهتين :

الشبهة الأولى

وقد اعتمدوا فيها على أثر مروي عن عثمان بن عفان ﷺ ، من طريقين ، أحدهما من طريقين ، أحدهما من طريق عكرمة عن عثمان ، والثاني من طريق يحيى بن يعمر عن عثمان ، ونص هذا الأثر كما يأتي :

«لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفًا من اللحن ، فقال لا تغيروها ، فإن العرب ستغيّرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف ، والمملي من هذيل ، لم توجد هذه الحروف»[1]

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن هذا الأثر مردود سندًا ، وباطل شرعًا وعقلاً وعادة .

أما من ناحية السند : فإسناده مختلط ن وزيادة على ذلك فهو أثر مرسل لا تقوم به حجة ، لأن كلاً من عكرمة ، ويحيى بن يعمر لم يريا عثمان ، ولم يسمعا منه ...

أما من ناحية استحالة وقوع ذلك عقلاً وشرعًا وعادة ، فيبينها لنا السيوطي بقوله : «كيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام ، فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللد ؟ ثم كيف يظن بهم ثانيًا في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل ، وحفظوه ، وأتقنوه ؟ ثم كيف يظن بهم ثالثًا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ؟ ثم

---

(١) ذكره السيوطي في الإتقان : ١/١٨٣ نقلاً عن أبي عبيد في فضائل القرآن .

كيف يظن بهم رابعًا عدم تنبيههم ورجوعهم عنه ؟ ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره ؟ ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ ن وهو مروي بالتواتر ، خلفًا عن سلف ، هذا مما يستحيل عقلاً وشرعًا وعادة »[١]

ويكفينا استدلالاً على أن عثمان لم يقر خطأ لناسخ ما ذكرناه أثناء الجمع العثماني ، من إشرافه التام على كل صغيرة وكبيرة لكونه أحد الحفاظ المتقنين ، ولكونه أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ودللنا على ذلك بأدلة كثيرة منها اختلاف كتبة المصاحف في لغة التابوت هل يكتبونه بتاء مفتوحة أو بهاء فأمرهم أن يكتبوه بتاء مفتوحة لأنه في لغة قريش هكذا ، وقد أنزل القرآن بلسان قريش .

ومما يؤيد عدم إقرار عثمان لأي خطأ من النساخ أيضًا ما أخرجه أبو عبيد حيث قال : «حدثنا عبد الله بن هانئ البربري مولى عثمان ، قال : كنت عند عثمان ،وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلني بكتف شاة إلى ابن كعب فيها لم يتسن ، وفيها لا تبديل لخلق ، وفيها فأمهل الكافرين ، قال : فدعا بالدواة ، فمحا أحد اللامين ، فكتب لخلق الله ، ومحا فأمهل ، وكتب فمهل ، وكتب لم يتسنه ألحق فيها الهاء»[٢] .

قال ابن الأنباري بعد أن ذكر هذا الأثر ، ليرد به على ما يروى من إقرار عثمان لخطأ النساخ : «فكيف يدعى عليه أنه رأى فسادًا فأمضاه ، وهو يوقف على ما كتب ، ويرفع الخلاف إليه ، الواقع من الناسخين ، ليحكم بالحق ، ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده»[٣]. إنها لفرية عجيبة حقًا ، على عثمان وعلى لجنة النسخ معًا ، إن عثمان «جعل للناس إمامًا يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحنًا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ، فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك ، وهم الخيار ، فكيف يقيمه غيرهم»[٤] .

---

(١) الإتقان : ١/ ١٨٣
(٢) الإتقان : ١/ ١٨٣
(٣) نفس الموضع السابق
(٤) نفس الموضع السابق

الشبهة الثانية

يقول المستشرق اليهودي جولد تسيهر ، في كتابه الشهير (مذاهب التفسير الإسلامي) ما نصه : «يذكر أن النص المتلقى بالقبول ، يعتمد على إهمال الناسخ ، وأن القراءة المخالفة المقترحة تقصد إلى إقامة النص الأصلي ، الذي أفسده سهو النساخ ، وفي المواضع التي تبدو فيها مفارقات ، نحوية اجترأ بعضهم على دعوى أن ما بقي من ذلك في نص الكتاب المنزل المعترف به ، يجب النظر إليه على أنه خطأ كتابي وقع فيه ناسخ غير يقظ ، وفي وقتٍ متأخر فقط اجتهد الذكاء وحدة الذهن في قواعد العربية بكل وسائل الفطنة لتسويغ صحة المواضع المشار إليها ، من جهة العربية ، ولا يتخلف النحاة البصريون والكوفيون في حدة الذهن والبصر ، بعلاج المشاكل عن بني وطنهم من الفقهاء ، أما المدرسة القديمة فلم تحاول ذلك ، بل آثرت في صدق وأمانة أن تبقي نص الوحي على ما يعتوره من مآخذ»[1] .

هكذا يدعي جولد تسيهر اليهودي وقوع أخطاء في القرآن ، من جهة العربية نتيجة إهمال النساخ ، ثم ضرب هو وأتباعه أمثلة تؤيد شبهتهم - من وجهة نظرهم - فذكروا رواية عن عائشة رضي الله عنها في ذلك يرويها لنا الزبير بن العوام ﷺ حيث قال : «سألت عائشة عن لحن القرآن ، عن قوله تعالى : «إن هذان لساحران»[2] ، وعن قوله تعالى : «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[3] وعن قوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون»[4] ، فقالت يا ابن أختي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب».

الرد على هذه الشبهة

ونحن أمام هذا الأثر ، الذي اعتمدت عليه تلك الشبهة ، سنفترض صحته ، جريًا

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي : ٤٦

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي : ٤٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦٢

(٤) المائدة : ٦٩ ، والأثر ذكره السيوطي في الإتقان : ١ / ١٨٢

على حكم السيوطي عليه ، حيث قال عنه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، ومع ذلك فإننا نقول لهم لا دليل لكم فيه على وقوع لحن من النساخ في هذه الألفاظ ، وفي غيرها من القرآن على الإطلاق لما يأتي :

أولاً : لأن هذه الألفاظ في هذه الآيات ، قد ثبت تواترها ، من عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، وستظل إلى يوم الدين هكذا فلا يجوز رد هذا التواتر ، والذي قام عليه إجماع الأمة ، بخبر آحاد ، يظن قائله أن هناك خطأ نحويًا في القرآن ، أنترك رأي الأمة كلها ، والتي اتخذت هذه الألفاظ عن رسولها ﷺ جيلاً ، بعد جيل من أجل ظن شخص أن هذا خطأ نحوي ، وهو في الحقيقة ليس بخطأ ، كما سيتضح الآن إن شاء الله ؟

ثانيًا : إن كلمة (اللحن) في اللغة تطلق على القراءة ومنه قول عمر بن الخطاب «أبي أقرؤنا ، وإنَّا لندع من لحن أبي»[1] أي من قراءته ، وعلى هذا فإن مراد عروة من قوله سألت عائشة عن لحن القرآن ، أي عن قراءة القرآن بهذه الأوجه التي كتبت بها هذه الألفاظ .

ويحمل قول عائشة (هذا عمل الكتاب ، أخطأوا في الكتاب على أن الكتاب اختاروا حرفًا من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره ، وترى أنهم في اختيارهم هذا الحرف دون غيره قد خالفوا الأولى ، بل كان عليهم أن يختاروا غيره ، بدليل أن أبا عمرو قرأ (إن هذين لساحران) ، ولم تقصد السيدة عائشة أن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ ، أو أنه خطأ من حيث اللغة ...

ثالثًا : إذا نظرنا إلى هذه الألفاظ التي أتوا بها ليثبتوا وقوع خطأ لغوي في القرآن ، نتيجة إهمال النساخ فسنجد أنها موافقة للغة ، ولا تخالفها في شيء ، وقد خرجها العلماء تخريجًا لا تكلف فيه ، ولا تعسف ، بل جاء موافقًا لاستعمال العرب ، وقواعد اللغة .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ ، فقد ذكر العلماء أوجهًا عديدة في إعرابها ، منها : أن اسم الإشارة (هذان) جاء في هذه الآية على لغة من يجعل المثنى

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

بالألف ، رفعًا ونصبًا ، وجرًا ، وهذه لغة كنانة ، وبني الحارث ، ومما يستشهدون به على ذلك قول الشاعر :

إن أباها وأبا أباهـا   قد بلغا في المجد غايتاها

فالقرآن عربي ، نزل بلسان العرب ، فإذا كان العرب يستعملون هذه الأساليب فلماذا ننكر على القرآن استعمالها ، وهو الذي نزل بلسانهم ؟

قال أبو السعود : «وقيل إن (إن) نافية ، واللام بمعنى إلا ، أي ما هذان إلا ساحران» [1] .

ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير أبي السعود ، وتفسير الألوسي ، والإتقان للسيوطي : ١ / ١٨٤ .

أما قوله تعالى : ﴿ **وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ * وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ فإن (المقيمين) منصوب على القطع عما قبله ، لمدح أولئك المقيمين الصلاة ، والقطع مشهور في لغة العرب ومنثور في كتبهم ، سواء أكان القطع للمدح أم للذم .

أما قوله تعالى (والصابئون) من آية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ فإن له أكثر من تخريج شائع في لغة العرب .

منها : أنه مبتدأ ، حذف خبره ، أي والصائبون كذلك ، ومنها أنه معطوف على محل إن مع اسمها ، فإن محلها الرفع بالابتداء ، إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها علماء التفسير ، وعلوم القرآن في كتبهم .

وعلى هذا فلا لحن في هذه الألفاظ ، ولا مفارقات نحوية فيها كما يزعم جولد تسيهر اليهودي ، كيف يجرؤ أحد من علماء المسلمين فضلاً عن عثمان أن يقر لحنًا في كتاب الله ؟

رابعًا : ولا دليل أدل على نقل هذا القرآن بكل ثقة عن رسول الله ﷺ ، نرد به

---

(١) تفسير أبي السعود

على قول هذا اليهودي ، من قوله هو في هذه الشبهة عن الصحابة الذين تلقوه من رسول الله ﷺ وكتبوه في المصاحف كما سمعوه منه حيث يقول : (أما المدرسة القديمة (يقصد الصحابة) فلم تحاول ذلك «أي التدخل في تغيير هذه الألفاظ التي يزعم أنها مخالفة للغة » بل آثرت في صدق وأمانة أن تبقي نص الوحي على ما يعتوره من مآخذ».

هكذا يعترف صراحة بعدم تدخل السلف ، والخلف في تغيير النص القرآني .

خامسًا : أما قوله أن المدرسة القديمة لم تجتهد لتسويغ تلك الأخطاء ، وإنما الذي اجتهد في تسويغها من جاء بعدهم من البصريين والكوفيين ، فذلك لا يعيب الصحابة ، ولا القرآن في شيء ، ذلك أن الصحابة كانوا أهل عربية بالسليقة ، وليسوا في حاجة إلى بيان أن هذه الألفاظ موافقة للعربية ، فهم أهل لسان عربي فصيح ، نزل القرآن على أساليبهم ، أما بعد ذلك ، فقد انتشر الإسلام ودخل العجم فيه ، ودونت العلوم ، وقعدت القواعد ، حتى يميز الصواب والخطأ ، فتعرض العلماء لمثل ذلك ، وبينوا للناس أن ذلك جار عن قواعد اللغة ، وليس مخالفًا لها ، فهل يعني ذلك طعن النحاة البصريين والكوفيين في عربية هذه الألفاظ ؟ إنه العمى الظاهر ، والقصد الخبيث الماكر لا أكثر .

النوع الثالث من الشبهات

وهذا النوع يندرج تحته تلك الشبهات التي تدعى زيادة شيء في القرآن ، ليست منه ، وقد ذكروا في هذا المقام عدة شبه . .

الشبهة الأولى

يقولون : إن الصحابة زادوا في القرآن ما هو من كلام عمر ، ألا وهو : «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»[1] .

ونقول لهم : هذا إفك ظالم ظاهر ، على عمر ﷺ وعلى قرآن الله عز وجل ، وليس هناك دليل واحد حتى لو كان واهيًا مثل بيت العنكبوت ، يصدق افتراءهم هذا ، ولكنهم نظروا إلى السبب الذي من أجله أنزل الله هذه الآية ، فاختلقوا شبهتهم تلك ، فسبب نزول هذه الآية كما يرويه البخاري أن عمر قال : «وافقت ربي في ثلاث ، أو

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٥

وافقني ربي في ثلاث ، قلت يا رسول الله : لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى . . .» إلخ الحديث[1] فالحديث ينص صراحة على أن عمر تمنى أن يتخذ الرسول ﷺ من مقام إبراهيم مصلى ، فشاءت الأقدار أن تتفق رغبة عمر ، وتمنيه ، ومع مشيئته عز وجل فأنزل الله الأمر بذلك .

والعجيب أن هناك فرقًا بين أسلوب عمر في رغبته تلك وأسلوب الآية ، فعمر عبر بأسلوب التمني (لو اتخذت) ، أما الآية فقد عبرت بأسلوب الأمر «واتخذوا» ، فأين الاتحاد بين اللفظين ؟

وهل يعني نزول آية على رغبة صادقة لعمر ، أن تكون هذه الآية من كلام عمر ، زادها الصحابة ، أو الرسول ﷺ نفسه في القرآن ؟

الشبهة الثانية

يقولون فيها : إن الصحابة قد زادت في القرآن ما هو من كلام أبي بكر ، وهو «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل»[2] الآية .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هؤلاء المستشرقين يتلمسون –بسوء نية– من الآثار والوقائع ما يخيل لهم أن في استطاعتهم التمويه به على المسلمين ليشككوهم في قرآن ربهم .
لقد نظر هؤلاء الخبيثون إلى حادث وفاة الرسول ﷺ ، وما دار بين الصحابة يومها ، فوجدوا أثرًا ينص على أن الصحابة أصيبوا بذهول شديد ، إلى الدرجة التي جعلت بعضهم يظن –ساعتها– استبعاد موته ﷺ إلى أن جاء أبو بكر الصديق ، فتلا عليهم هذه الآية ، فصدق الجميع بموته ﷺ .

٢- وألفاظ الأثر نفسه تدل بكل وضوح على أن الآية نزلت قبل ذلك ، أخرج البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس : أن أبا بكر أمر عمراً أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد

---

(١) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤٤ .

محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ... » إلى قوله تعالى ﴿ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية ، حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»[1] .

فهل في هذا الأثر أدنى إشارة إلى أن الآية هذه من تأليف أبي بكر ؟ إن السياق كله يدل على أنها من كلام الله ، بل إن هذا الأثر ينص على أن أبا بكر قبل أن ينطق بها قال : قال الله « وما محمد إلا رسول ... » ولكنه التزوير الملفق ، والكفر الصراح في تحريف الكلم عن مواضعه من هؤلاء المستشرقين . ليطعنوا في سلامة القرآن .

٣- والذي يرجع إلى سبب نزول هذه الآية يعلم أنها نزلت في غزوة أحد ، حينما شاعت شائعة بقتله ﷺ ، ومن أراد تفصيل هذا السبب فليرجع إلى تفسير هذه الآية في كتب التفاسير ، في سورة آل عمران .

الشبهة الثالثة

يقولون فيها : إن المسلمين زادوا في كتاب الله سور : الفاتحة والمعوذتين ، ويستدلون على ذلك بأن ابن مسعود ﷺ أنكر قرآنية هذه السور ، بل قام بمحو المعوذتين من مصحفه ، وقال إنهما ليستا من كتاب الله تعالى .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن هذا الأثر المروي عن ابن مسعود قد يكون صحيحًا ، وقد يكون غير صحيح ، وقد ذهب إلى عدم صحته كثير من العلماء ، كالإمام النووي ، وابن حزم ، وقالوا إنه مكذوب ، مدسوس على ابن مسعود .

وقد ذهب إلى صحته الحافظ بن حجر ، في فتح الباري ، ولذا فإننا سنناقش هذا الأثر مفترضين صحة نسبته إلى ابن مسعود ، فنقول :

---

(١) البخاري ن كتاب المغازي ، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم .

أولا : أجمعت الأمة كلها سلفًا وخلفًا على قرآنية هذه السور ، وإجماع الأمة كلها من أقوى الأدلة ، إذ لا تجتمع على باطل .

ثانيًا : وقامت الأدلة التي لا حصر لها على قرآنيتها ، بل حثت المسلمين على قراءتها بالذات ، ومن هذه الأدلة ما يأتي :

أخرج البخاري في صحيحه ، عن أبي سعيد المعلى ، أن رسول الله ﷺ قال له : « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد » قال أبو سعيد : « ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين » هي السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته »[1] .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر آيات أنزلت الليلة ، لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس »[2] . إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قرآنية هذه السور ، وهي أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تنسى .

ثالثًا : على افتراض صحة نسبة هذا الإنكار لابن مسعود ، فإن ذلك يحمل منه على أول أمره ، قبل أن تتواتر عنده قرآنية هذه السور ، نظرًا لما كان يرى من تعوذ النبي ﷺ بالمعوذتين ، فربما ظن أنهما ليستا بقرآن ، فلما عرف بالقرآنية ، أقر بها ، وهذا لا مؤاخذة عليه في ذلك ، ما دام بصدد البحث والنظر ، وما دام لم يدعم عليه وأقر بما هو حق أجمعت الأمة عليه .

ومما يدل على أن آخر الأمرين من ابن مسعود – إن كان له أمران ، أو لهما إنكار ، أن قراءة عاصم عن ابن مسعود صحيحة لا مرية فيها .

رابعًا : لو ذهبنا مع هؤلاء المستشرقين إلى أقصى حد ، من استدلالهم بإنكار ابن

---

(١) البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الفاتحة

(٢) مسلم ، كتاب المسافرين ، باب فضل قراءة المعوذتين .

مسعود لقرآنية هذه السور ، وسلمنا لهم بأن ابن مسعود كان ينكرها ، بل ينكر كل القرآن الكريم فإن ذلك لا يدل لهم على أن في القرآن زيادة ليست منه ، وأن هذا يعد طعنًا في سلامة القرآن ، لأن الأمة كلها سلفًا ، وخلفًا أجمعت على قرآنية هذه السور ، فما قيمة رأي يخالف ما أجمعت الأمة ، خاصة في عصر أتقى وأعدل العصور على الإطلاق ، لقد تحقق التواتر لهذه السور فلا يضر أن ينكرها منكر . لأننا لو سرنا على قاعدة أن يرد الشيء المتواتر لو فيه مخالف ، ويكذب ، ما تحقق أي تواتر ، لأي شيء ، بل لاختلت الحياة كلها ، وسادتها الفوضى وعمها الاضطراب .

النوع الرابع من الشبهات

وهو النوع الذي ينص على وقوع نقص في القرآن ولهم في ذلك شبه متعددة ...

الشبهة الأولى

قالوا فيها : إن القرآن – وفي حياة النبي ﷺ نفسه – قد ضاعت منه أشياء ويستدلون على ذلك بما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : «سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال : رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية ، أسقطتهن من سورة كذا وكذا » هذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم « لقد أذكرني آية كنت أنسيتها»[1] .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- عن المراد بالسقوط في قوله ﷺ : (أسقطتهن) النسيان ، بدليل رواية مسلم (كنت أنسيتها) .

٢- من البديهي أن هذا السقوط منه ﷺ ، كان على غير عمد ، وإلا لكان هذا خيانة ، وحاشاه ﷺ ، فالأمانة صفة لازمة من صفات النبوة ، وإلا ما صلح أن يكون نبيًا ، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[2] ، وعلى هذا فيستحيل عليه ﷺ أن يتصرف

(١) البخاري : كتاب الشهادات ، باب (١١) ، ومسلم : كتاب المسافرين ، باب (٢٢٤) .
(٢) سورة يونس : آية ١٥ .

في النص القرآني ، بأية صورة من صور التصرف إلا بأمر منه عز وجل ، قال تعالى :﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [1] .

٣- هذا النسيان الذي حدث له ﷺ ، لم يكن بالمعنى الشامل أي بالمحو الكامل من ذهنه الشريف ، بل بمجرد أن ذكر تذكر ، وهذا لا غبار عليه ، فذلك من طبيعة البشرية التي لا تتحقق بشرية البشر إلا بها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [2] .

٤- ومما يهون من أمر مثل هذا النسيان ، وأنه لا ضرر فيه ولا ضرار ، أنه كان بعد التبليغ ، والنسيان إذا كان بعد التبليغ لا يضر في شيء ، بدليل أن الرسول ﷺ لما بلغ القرآن كله ، انتقل بكليته من بين صحابته ، ومن الدنيا كلها إلى الرفيق الأعلى ، وما ضر ذلك القرآن في شيء ؟

الشبهة الثانية

ويصلون بالشبهة السابقة شبهة لاحقة ، فيقولون : إذا كان (محمد ﷺ) قد اتفق له من يذكره في بعض المواقف ما نسيه من آيات ، فإن هناك مواقف لم يتفق له فيها من يذكره بآيات أخرى قد نسيها ويستدلون على صحة دعواهم هذه ، بقوله عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ [3] ، ويقولون إن الاستثناء هنا دليل على حدوث النسيان من النبي ﷺ ، مما يعني سقوط آيات من القرآن .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن المراد من النسيان في هذه الآية هو ما عناه الله عز وجل في قوله :﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [4] وهو منسوخ التلاوة ، فتكون هذه الآية آية

---

(١) الكهف : ٢١٠ ، وفصلت : ٦

(٢) الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦

(٣) سورة الأعلى : آية ٦ ، ٧ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٠٦ .

الأعلى قد حملت البشرى لرسول الله ﷺ ، والذي كان يتعجل الأخذ عن جبريل أثناء الوحي ، فنهي عن ذلك – حملت له البشرى بعدم النسيان إلا ما شاء الله نسخه لحكمة تعود على مصلحة المسلمين .

ولا يعجبني في هذا المقام ما يرد به البعض كالإمام محمد عبده والشيخ الزرقاني عليهما رحمة الله على أولئك الأفاكين ، من توجيه الإستثناء هنا بأنه استثناء صوري ، قصد به النفي المؤبد لهذا النسيان من رسول الله ﷺ جريًا على غرار قوله الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [(١)] .

لأن هذا التوجيه إذا كان يليق بمقام آية هود ، فإنه لا يليق هنا لأن آية سورة الأعلى مكية ، فلو قلنا بأن الاستثناء فيها يعني النفي المؤبد للنسيان لاقتضى أن لا يحدث بعد نزولها نسيان ، في حين أن الواقع يدل على أنه قد حدث نسيان بالمدينة ، كما ذكرنا في الشبهة السابقة ، وإن كان هذا النسيان لا يضر ، لأنه قد حدث بعد التبليغ .

الشبهة الثالثة :

قالوا : إن كثيرًا من الحفاظ قتلوا أثناء الغزوات والحروب في العهد النبوي ، وبعده ، وقبل أن يجمع القرآن في العهد البكري ، وبالتالي فإن أبا بكر لما جمع القرآن الكريم لم يجمع إلا ما كان لدى الأحياء ، أما ما كان يحفظه القتلى والأموات ، فقد ضاع بقتل من قتل وبموت من مات .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- دعوى أن بعض الشهداء قتل ومعه شيء من القرآن ، ليس مع غيره دعوى باطلة ، تفتقد أدنى دليل .

٢- بل إن ما كان مع الشهداء كان مع أعداد غفيرة من الأحياء بدليل أن عمر في العهد البكري لما اقترح على أبي بكر جمع القرآن لم يقل له إن بعض القرآن

---

(١) سورة هود : آية ١٠٨

قد ضاع ، وإني أرى أن تأمر بجمع ما بقي منه ، لكنه قال له : «إني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن»[1] .

فالموضوع إلى هذه اللحظة التي اقترح فيها عمر جمع القرآن موضوع خوف ، وتوجس أن يضيع منه شيء مستقبلاً ، لا أن بعضه قد فقد فيما مضى .

٣- ومما يدل على أن القرآن لم يضع منه شيء بقتل الشهداء ، إنه كان للقرآن مصدران لجمعه ، مصدر مكتوب في السطور ، ومصدر محفوظ في الصدور ، ولذلك لما أرادوا جمعه في العهد البكري كانوا يعتمدون على المصدرين معًا ، ولا يكتفون بأحدهما ، بدليل أنهم لما انتهوا من الجمع افتقدوا الآيتين من آخر التوبة ، وآية من سورة الأحزاب ، ومع أنهم كانوا يحفظونها إلا أنهم لم يشاءوا كتابتها إلا بعد العثور على مصدرها المكتوب بين يدي النبي ﷺ فالتمسوها حتى وجدوها عند من كانت عنده .

الشبهة الرابعة :

وتدور هذه الشبهة حول ضياع آيات كثيرة من سورة الأحزاب ومنها آية الرجم ، ويستدلون على هذه الشبهة بأثرين ، ينسب أحدهما لعائشة ، وثانيهما لأبي بن كعب .

أما الأثر الأول فقد ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ، وذكره بعض المفسرين كالقرطبي وغيره ، حيث يقول أبو عبيد : «حدثنا ابن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة عن عائشة قالت : «كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية ، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي عليه الآن»[2] .

وأما الأثر الثاني فقد ذكره بعض المفسرين كالإمام القرطبي أيضًا ، حيث يقول : «وروى زر ، قال : قال لي أبي بن كعب كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت ثلاثًا وسبعين

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٢) انظر تفسير القرطبي : ١٤/١١٣ .

آية ، قال : فو الذي يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم »[1] .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن كان يقصد هؤلاء المستشرقون من هذين الأثرين ضياع آيات من سورة الأحزات ، أمر المسلمون بقراءتها ، وتوفي رسول الله ﷺ وهي معدودات من القرآن الخالد ، فهو قول كاسد ، ومبدأ فاسد ، فالعلم بصحة نقل القرآن وسلامته من كل زيادة أو نقصان كالعلم بالوقائع العظام ، والحوادث الكبار لأن الدواعي تكاتفت على صيانته وحراسته فاشتدت عناية المسلمين به إلى مبلغ لم يصل إليه أي اعتناء بأي شيء على الإطلاق ، ولا زال الواقع يشهد بذلك وسيظل .

وعلى ذلك فإن أي أثر يفيد ضياع شيء من القرآن الكريم فهو أثر مكذوب ، ولو صح سنده ، فإنه يؤول تأويلاً يتفق مع تنزيه القرآن الكريم عن كل نقصان ، وإلا فلا يؤخذ به مهما كان وضع قائله ، قال الألوسي وهو يعلق على هذه الآثار التي تزعم ضياع شيء من سورة الأحزاب « والحق أن كل شيء ظاهره ضياع شيء من القرآن الكريم إما موضوع وإما مؤول . . »[2] ولقد أول العلماء هذه الآثار -على افتراض صحتها - تأويلاً حسنًا فذهبوا إلى أن سورة الأحزاب كانت آياتها أكثر مما عليه الآن ولكنه نسخ بعض منها ، واستقر آخر الأمر على هذا العدد من الآيات ، وتوفي رسول الله ﷺ ، وهي على هذا العدد ، الموجود في المصحف الآن .

قال أبو بكر الأنباري معلقًا على الأثر الأول : « فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا »[3] وعلق

---

(١) نفس الموضع السابق

(٢) تفسير الألوسي : ٢١/ ١٤٢ ، ط المنيرية

(٣) تفسير القرطبي : ١٤/ ١١٣

القرطبي على هذا الأثر بقوله : «هذا وجه من وجوه النسخ»[1] وعلى الأثر الثاني يقول ابن كثير : «وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ، ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا»[2] ومما يدل على افتراض صحة ما نسب إلى أبي – أنه قد حدث نسخ لآيات في سورة الأحزاب ، أن أبي بن كعب كان مشتركًا في الجمع البكري ، والعثماني ولم يطلب إثبات مزيد على ما هو موجود الآن في سورة الأحزاب ، أضف إلى ذلك أن أكثر من قراءة من القراءات العشر المتصلة إلى الرسول ﷺ قد أخذها أصحابها عن طريق أبي بن كعب ، وليس فيها آية «الشيخ والشيخة» ولا شيء غير ما هو موجود في السورة الآن ، فلو كان يرى قرآنيتها إلى الآن ، لكان قرأها ، وأخذها القراء عنه .

الشبهة الخامسة

قالوا فيها : إن كتابة القرآن الكريم على الأشياء الغير متجانسة من عظام ، وجلود وغيرها كانت غير منضبطة مما ترتب على ذلك ضياع بعض آيات من القرآن والتي لم يجد المسلمون تعليلاً لضيعها إلا الادعاء بأنها نسخت كتابة لا حكما .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- كتابة القرآن في أول الأمر على أشياء غير متجانسة لا يعني عدم انضباطها عدم واختلاط بعضها ببعض ، لأن الرسول ﷺ كان يعلمهم ترتيب الآيات ، فالآيات وإن كانت مكتوبة مفرقة ، إلا أنهم كانوا يعلمون ترتيبها .

٢- لو سلمنا جدلاً لأولئك الأفاكين بأن كتابة الآيات كانت غير منظمة ، وغير مرتبة ، فإن ذلك لا يطعن في سلامة القرآن ، بل لو لم تكن هناك كتابة بالمرة ، لأن المعول عليه هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور ، وإنما كانوا يكتبون الآيات مبالغة في التوثيق .

٣- أما ادعاؤهم بأن بعضها قد ضاع ، وعلل المسلمون ضياعها بنسخها ، فهذا

(١) نفس الموضع السابق

(٢) تفسير ابن كثير : ٦/ ٣٧٦ .

ادعاء باطل ، وتلبيس واضح ، أرادوا به الطعن على النسخ لدى المسلمين ، رغم ثبوته في الشرائع السابقة .

والدليل على كذب ادعائهم هذا ، أن هناك بعض ما قيل عنه أنه منسوخ التلاوة ، لا الحكم ، موجود إلى الآن في كتب المسلمين ، ولم يكتبوه في القرآن مثل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فلو كان الأمر بيد البشر لأثبتوا هذه الآية في القرآن الكريم ، ولكن ما كان لأحد حتى لو كان رسول الله ﷺ أن يتدخل في النص القرآني بزيادة أو نقصان ، وهذا دليل واضح على كذبهم البين ، وعلى قداسة القرآن الكريم الواضحة .

الشبهة السادسة :

ومما يتصل بالشبهة السابقة شبهة أخرى ، وهي كالدليل لها حيث قالوا :

إن طريقة الكتابة هذه ترتب عليها ضياع شيء من القرآن الكريم ، واستدلوا على ذلك بما نسب إلى ابن عمر رضي الله عنهما : «لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، قد ذهب منه كثير ، ولكن ليقل قد أخذت ما ظهر منه» .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- هذا الأثر لا تصح نسبته إلى ابن عمر ، بحال من الأحوال ، وإنما هو مدسوس عليه ، فلا يؤخذ به ، ولا يؤاخذ عليه .

٢- ولو سلمنا لأولئك الدجالين بصحة هذا الأثر عن ابن عمر (رضي الله) عنه فإننا نقول لهم هذا من كلام ابن عمر وظنه ، وليس مأخوذًا عن الرسول ﷺ ، وظنه هذا ظن خاص ، مردود بإجماع الأمة على عدم ضياع شيء من القرآن ، فلا يترك إجماع الأمة كلها القائم على اليقين ، من أجل ظن خاطئ قائم على الوهم والخيال .

٣- لو افترضنا ضياع شيء مكتوب جدلاً ، فذلك لا يضير القرآن في شيء ، لما أكدنا مرارًا من أن المعول عليه هو الحفظ لا الكتابة .

الشبهة السابعة

وتدور هذه الشبهة حول ادعائهم إسقاط آيات من سورة «لم يكن» واستندوا في ذلك على آثار حكم العلماء عليها بالوضع، ولكني وجدت بعض العلماء حكم على أثر من هذه الآثار بالصحة، ولذلك فهو الذي سنقف معه لمناقشته.

أخرج الحاكم في مستدركه عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب» فقرأ فيها: ولو أن ابن آدم سأل واديًا من مال فأعطيه، لسأل ثانيًا، ولو سأل ثانيًا فأعطيه لسأل ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل ذلك فلن يكفره»، قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[1]

استند هؤلاء المستشرقون على هذا الأثر، وزعموا أن سورة «لم يكن» قد ضاعت منها هذه الآيات.

ونرد على هذه الشبهة فنقول:

١- هذا الذي ادعوه قرآنًا، ليس بقرآن، وإنما هو حديث نبوي.

٢- والدليل على أنه حديث نبوي ما ورد في الصحيحين وغيرهما أن الذي قاله هو رسول الله ﷺ.

٣- والمسحة القرآنية، والأسلوب القرآني غير ظاهر في هذا الكلام.

٤- ومما يدل على أن هذا الأثر حديث وليس قرآنًا أن أبي بن كعب صرح بتردده في هذا الكلام، أهو حديث نبوي، أم هو قرآن منزل.

فقد أخرج الضرير عن ابن عباس قال: قلت يا أمير المؤمنين إن أبيًا يزعم أنك تركت من آيات الله آية لم تكتبها، قال: والله لأسألن أبيًا، فإن أنكر لتكذبن، فلما

---

(١) مستدرك الحاكم: ٢/ ٥٣٦، ط/ دار المعرفة ببيروت.

صلى صلاة الغداة غدا على أبي ، فإذن له ، وطرح له وسادة ، وقال : يزعم هذا أنك تزعم أني تركت آية من كتاب الله ، لم أكتبها ، فقال : إني سمعت رسول الله يقول : لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما واديًا ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فقال عمر : أفأكتبها ؟ قال : لا أنهاك ، قال : فكأن أبيًا شك أقول من رسول الله ﷺ ، أو قرآن منزل »[1]

٥- يدل الأثر السابق على تشكك أبي في هذا الكلام ، أهو حديث نبوي ، أم هو قرآن منزل ، وقد زال هذا التشكك بإجماع الأمة كلها على أنه ليس بقرآن ، ودلت مصادر السنة على أنه حديث نبوي ، فلا حجة لأولئك الضالين المضلين ، بما يروى عن أبي في هذا .

٦- ومما يدل على أن أبا بن كعب كان لا يعتقد قرآنية هذا الكلام أن أكثر من قراءة متواترة متصلة برسول الله ﷺ من القراءات العشر أخذت عن أبي ، وليس فيها هذا الكلام ، فقد ذكر صاحب النشر في القراءات العشر ١ / ١١٢ قراءة نافع عنه ، وفي ١ / ١٢٠ قراءة ابن كثير عنه ، وفي ١١ / ١٣٣ قراءة أبي عمرو عنه ، وفي ١ / ١٥٥ قراءة عاصم عنه ، وفي ١ / ١٧٨ قراءة أبي جعفر عنه ، وليس في كل هذه القراءات ما يدعيه أولئك الكذابون على أبي بن كعب .

قال أبو بكر الأنباري معلقًا على ما يدعيه البعض من إسقاط قرآن في سورة « لم يكن » معتمدًا على ما يروى عن أبي : « هذا باطل عند أهل العلم ، لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب ، لا يقرأ فيهما هذا المذكور ، في « لم يكن » ، مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ على أنه من كلام الرسول عليه السلام ، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن ، وما رواه الاثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة »[2] .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور : ٦ / ٣٧٨ ، ط دار المعرفة ببيروت .

(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ١٣٩ .

الشبهة الثامنة

وكان للمستشرق الإنجليزي الدكتور (•سنكلير تسدل) دور كبير في ترويجه ومحاولة إقناع المسلمين بضياع شيء من القرآن، مستدلاً بآثار صحيحة السند، حيث يقول في كتابه «ميزان الحق» ص ٣٤٨: (وكان إذا أملى محمد آية على الكاتب سارع إلى حفظها المتدينون من قومه، ولكن ذلك لا يمنع من أن بعض الآيات لم يحفظها أحد، أو مات الذين حفظوها، جاء في صحيح مسلم أن عائشة قالت: ما معناه (••مما أنزل في القرآن عشر آيات في الرضاعة، نهي عنها ونسخت بخمس آيات أخر، ومما لا شك فيه أن عائشة سمعت هذه الآيات في زمانها، من بعض القراء، ولا نجدها اليوم في القرآن» إلى أن يقول: (وروى ابن ماجه «قالت عائشة: إن آية الرجم والرضاعة نزلت. وكان القرطاس المكتوبتان فيه تحت فراشي، ومات رسول الله حينئذ، وفيما أنا منشغلة بموته دخلت بهيمة، وأكلت القرطاس»[1]

ونرد على هذه الشبهة من ناحيتين، من ناحية مضمونها، ومن ناحية أدلتها، أما من ناحية مضمونها، فنقول:

١- قوله إن بعض الآيات لم يحفظها أحد، أو مات الذين حفظوها قول لا نسلم له به، فلو رجعنا إلى العوامل التي ساعدت الصحابة على حفظ القرآن. علمنا أنه يستحيل أن ينزل قرآن من السماء ولا يحفظه أي أحد على الإطلاق.

٢- معلوم أن جبريل عليه السلام كان يعارض الرسول ﷺ القرآن كل عام مرة. وعارضه في العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى (مات فيه) مرتين. فلو افترضنا جدلاً أن بعض الصحابة لم يحفظ بعض الآيات وقت نزولها، فلا ضير في ذلك، لأن الرسول ﷺ حي بينهم، يتلو عليهم هذه الآيات ليل نهار.

٣- إن عدد الحفاظ الذين حفظوا القرآن لم يحصوا عددًا، واشتهر من بينهم كثيرون، منهم الخلفاء الأربعة، وغيرهم ممن ذكرناهم في مبحث كثرة الحفاظ

---

(١) القرآن والمستشرقون ليوسف لقمان: ٣٦٣.

من الصحابة ، وهؤلاء لم يموتوا إلا بعد أن دون القرآن كله في عهد أبي بكر ، فقولهم إن بعض الآيات لم يحفظها أحد ، أو مات الذين حفظوها ، قول بلا دليل ، بل قامت الأدلة المتعددة على بطلانه .

أما من ناحية الأثرين المذكورين ، في صحيح مسلم ، وسنن ابن ماجة ، فإننا نرد عليهم في استشهادهم بهما ، بما يأتي :

١- أن الرواية التي قالوا عنها أنها في صحيح مسلم ، نصها ليس كذلك ، وإنما هو : (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن » [1] . فهم قد حرفوا قول عائشة (عشر رضعات معلومات » بقولهم « (عشر آيات في الرضاعة »، وقولها : « ثم نسخن بخمس معلومات » بقولهم : ونسخت بخمس آيات أخر »، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طعن متعمد ظالم ، في أقدس مقدسات المسلمين ، ولو كان الطريق إلى ذلك تلفيق التهم وتحريف الكلم عن مواضعه .

٢- وبالنسبة لرواية مسلم فإن للعلماء مذهبين في توجيه ما جاء فيها ، وكلاهما من القوة بمكان في الرد على أولئك الذين يريدون منها أن يصلوا إلى هناك نصًا من القرآن قد ضاع .

المذهب الأول : يقول أتباعه ، قد كان نص في القرآن يحرم بعشر رضعات ، ثم نسخ هذا النص بنص آخر يحرم بخمس ، وقبيل وفاة الرسول ﷺ نسخ هذا النص أيضًا لحكمة إلهية ، ولكن بقي حكمه معمولاً به ، وجاءت نصوص السنة تدل على بقاء هذا الحكم ، وعلى ذلك فلم يحدث ضياع لهذا النص ، ولكن حدث نسخ له .

يقول الإمام النووي : شارح صحيح مسلم ، وهو يذكر أنواع النسخ : « والثاني ما

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الرضاع ، باب (٦) .

نسخ تلاوته دون حكمه ، كخمس رضعات ، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة »[1] .

وبين النووي معنى : (فتوفي رسول الله ﷺ ، وهن فيما يقرأ من القرآن) ، فيقول : « ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًا ، حتى أنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ، ويجعلها قرآنًا متلوًا ، لكونه لم يبلغه النسخ ، لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك ، رجعوا عن ذلك ، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى »[2] .

أما المذهب الثاني : في توجيه ما جاء في رواية مسلم عن عائشة فيقول أصحابه : أن القرآن يشترط فيه التواتر ، وهذا حديث آحاد لا يعتد به في قرآنية شيء على الإطلاق .

يقول الإمام النووي أيضًا : « واعترض أصحاب مالك على الشافعية بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم ، وعند محققي الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذا لم يثبت قرآنًا لم يثبت بخبر الواحد عن النبي ﷺ ، لأن خبر الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به ، وهذا إذا لم يجئ إلا بآحاد ، مع أن العادة مجيئه متواترًا توجب ريبة »[3] .

ويقول ابن حجر : عن حديث مسلم هذا : « لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قولي الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والراوي روى هذا على أنه قرآن لا خبر ، فلم يثبت كونه قرآنًا ولا ذكر الراوي أنه خبر ليقبل قوله فيه »[4] .

وعلى أي مذهب من مذهبي العلماء في توجيه ما جاء في صحيح مسلم ، فإنه لا يفهم من هذه الرواية ضياع آيات في الرضاع ، لأنها إما نسخت تلاوة ، وهذا لا

---

(١) المنهاج : ١٠/٢٩ ، ط المطبعة المصرية .

(٢) نفس الموضع السابق .

(٣) المنهاج : ١٠/٣٠

(٤) فتح الباري : ٩/٥١

يعني ضياعها ، وإما لم يثبت قرآنيتها ، لأنها رواية آحاد ، والقرآن يشترط فيه التواتر ، فلا صحة إطلاقًا لما يدعيه أو لما يفهمه أولئك الخراصون من رواية مسلم ، ويقولون بضياع آيات من القرآن الكريم .

٣- ومن أكبر الأدلة على أن ما جاء في رواية مسلم عن عائشة ليس بقرآن ، اختلاف الروايات عنها في القدر المحرم من الرضاعة ، ولذلك يقول ابن حجر : « ثم اختلفوا ، فجاء عن عائشة عشر رضعات ، أخرجه مالك في الموطأ ، وعن حفصة كذلك ، وجاء عن عائشة أيضًا سبع رضعات أخرجه ابن أبي خيثمة بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الزبير عنها ، وعبد الرازق من طريق عروة : (كانت عائشة تقول : لا يحرم دون سبع رضعات ، أو خمس رضعات ، وجاء عن عائشة أيضًا خمس رضعات » [1] . فهذا الاختلاف عنها في القدر المحرم ، يدل على أن ما جاء في صحيح مسلم لو كان قرآنًا ما حدث هذا الاختلاف .

٤- أما رواية ابن ماجه ، والتي تفيد أن بهيمة أكلت القرطاس الذي كتبت فيه آيات الرجم والرضاعة ، أثناء انشغال أم المؤمنين السيدة / عائشة رضي الله عنها بموته ﷺ ، فعلى افتراض صحتها ، فإنها لا تعني ضياع شيء من القرآن ، لما أكدناه مرارًا أن المعول عليه في القرآن الكريم هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور ، فلو لم يكتب القرآن كله من الأساس فلا ضير في ذلك ، ما دام يتناقله في ظل طبقة ، عدد يحصل به التواتر ، وإنما كتب مبالغة في الاعتناء به ، وزيادة للتوثيق له ، حتى يكون له مصدران وعلى ذلك فلو صح ما يقال إن بهيمة أكلت قرطاسًا فيه آية أو آيات ، بل فلو صح أن البهائم أكلت كل ما كتب من الآيات ، فلا ضير في ذلك ، ما دام القرآن محفوظًا في صدور عدد يحصل به التواتر طبقة بعد طبقة .

---

(١) فتح الباري : ٩ / ٥٠

الشبهة التاسعة

يقولون إن الصحابة أزالوا من المصحف سورة تسمى سورة الخلع والحفد –بفتح أولهما، وسكون ثانيهما – ، وقالوا ودليلنا على ذلك أن أبي بن كعب كان يكتبها في مصحفه، وصيغتها كالتالي :

«اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك ونتوب إليك و، ونؤمن بك ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذه السورة التي يدعون على الصحابة إسقاطها، ليست قرآنا، ولكنه دعاء، أطلق عليه دعاء القنوت، وهو الذي أخذ به الأحناف، للدعاء به في الصلاة .

٢- وكما ذكرنا مرارًا أن القرآن يشترط فيه التواتر، وهذه الصيغة لم تتواتر قرآنيتها، بل ليس هناك دليل آحاد قوي ينص على قرآنيتها .

٣- من عنده أدنى ذوق قرآني، يستطيع أن يحكم على هذه الصيغة بأنها ليست قرآنًا، بل لا تبدو عليها المسحة القرآنية، فالقرآن له مسحة خاصة، وأنوار مميزة .

٤- وإن صح عن أبي أنه كان يكتب هذا الكلام في مصحفه الخاص به، فإنما يكتبه على أنه دعاء، لا على أنه قرآن كما هو المعروف عن عادتهم، حيث كانوا يكتبون في الهامش أشياء تفسيرية، ونحو ذلك .

٥- من المعلوم أن أبي بن كعب قد اشترك في جمع القرآن الكريم في العهد البكري، وفي نسخ المصاحف في العهد العثماني، فلماذا لم يطلب كتابة هذا الكلام في القرآن، لو كان يرى قرآنيته ؟

٦- والدليل على أن أبي بن كعب كان لا يعتقد قرآنية هذا الكلام أن أكثر من

قراءة من القراءات العشر المتواترة المأخوذة عن الرسول ﷺ قد أخذها أصحابها عن أبي بن كعب ، وقد وضحنا ذلك قريبًا في الشبهة السابقة ، حيث أخذ عنه كل من نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وعاصم ، وأبي جعفر ، وليس في قراءة هؤلاء ذل الكلام الذي يزعم أولئك الكذابون أنه قرآن قد سقط وأن أبيًا كان يكتبه في مصحفه على أنه قرآن .

٧- ومما يدل على أن ما يسمونه سورة الخلع والحفد ليس قرآنًا وإنما هو دعاء ، ما رواه البيهقي من طريق سفيان الثوري أن عمر بن الخطاب ﷺ قنت بعد الركوع فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنا نستعينك ونستهديك ... إلخ »[1] ، فقوله : قنت بعد الركوع دليل على أنه دعاء قنوت ، لا قرآن منزل ، وأما ذكر عمر للبسملة فلا يقتضي قرآنية هذا الدعاء لأن البسملة مطلوبة في كل أمر ذي بال كما هو معلوم .

٨- وعلى أقصى افتراض يفترضه أولئك الكذابون ، بأننا لو سلمنا جدلاً بأن أبيًا كان يرى هذا الكلام قرآنًا فرأيه هذا مردود عليه ، لأنه خالف التواتر والإجماع وكل ما خالف التواتر والإجماع فهو مردود ، إذ ليس من شرط التواتر أن لا يخالف فيه مخالف ، وإلا ما تواتر شيء على الإطلاق ، ولو بالكذب والافتراء .

الشبهة العاشرة .

يقولون : إن الصحابة أسقطوا آية من القرآن تسمى آية المتعة وأن الذي تولى كبر إسقاطها هو علي بن أبي طالب ﷺ ، بل لم يكن يكتفي بإسقاطها ، بل كان يجلد من يقرأ بها .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذا كلام مكذوب ، لأن القرآن يثبت بالتواتر ، فأين هذه الآية ؟ وأين تواترها ؟

---

(١) الإتقان : ١ / ٦٥

٢- ثم كيف يعقل من علي أن يسقط آية من القرآن الكريم ، وهو يعلم علم اليقين أن الذي ينكر بقلبه آية من القرآن يكون كافرًا ، فضلاً عن إسقاطها من المصحف ، وإلزام الآخرين بإنكارها .

٣- ثم كيف تسكت الأمة كلها لعلي ، وهو يفعل _بزعمهم- هذا المنكر ، وتجمع كلها على باطل ، أليس فيهم رجل رشيد يقول له : قف مكانك وهم الغيورون على قرآن الله ، الذين يدافعون عنه بأرواحهم وأموالهم وأولادهم ؟ والله إن هذا لافتراء ، بل سفه وجنون . .

الشبهة الحادية عشرة

يزعمون أن الحجاج بن يوسف الثقفي أراد أن يتزلف إلى بني أمية بمناصرتهم ، فوجد أن أفضل وسيلة إلى ذلك أن يقوم بإسقاط كثير من آياته ، والتي تحتوي على كثير يسوءهم وكتب ستة مصاحف أرسلها إلى كل من مكة والمدينة ومصر والشام ، والكوفة والبصرة وهي القرآن الذي يقرؤه المسلمون اليوم ، أما المصاحف الأخرى فقد جمعها وجهز لها خلاً مغليًا ، قذف بها فيه ، حتى تمزقت .

ونرد على هذه الشبهة :

هذه دعوى كاذبة ، تحمل في طياتها أسباب نسفها ، وحيثيات هدمها لما يأتي :

١- أن هذا الذي نسبوه إلى الحجاج ليس عملاً عاديًا ، ينسى بمرور الزمان ، إنما هو عمل -لو حدث -لطار ذكره في الأفاق وانتشر في القرى والأمصار ، إلى يوم الدين ، كما حدث لجمع أبي بكر وعثمان فكان جديرًا بالتاريخ أن ينقل هذا العمل الجلل بطريق التواتر ، ولكن ذلك لم يحدث لأنه لم يقع .

٢- معلوم أن الحجاج لم تكن له ولاية عامة ، على كل الأقطار الإسلامية ، ولكن كان واليًا خاصًا بقطر منها ، فكيف فعل ذلك في كل العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

٣- ثم كيف يقف العالم الإسلامي كله ، بما فيه من كبار التابعين الأجلاء ،

وعلمائهم الذين لا يخشون في الله لومة لائم ، كيف يقف هذا الموقف السلبي الجبان الخذول تجاه أقدس المقدسات لديهم ؟ هل كان الحجاج يملك من القوة والوسائل التي يقضي على حفاظ القرآن الكريم ، علماؤهم ، ولم يكن من بين هذه الملايين أحد يحب الشهادة دفاعًا عن قرآن الله عز وجل ؟ إن هذا لشيء عجاب .

٤- وإذا كان في مقدور الحجاج أن يجمع كل المصاحف ويقوم بالتلاعب فيها ، فكيف استطاع أن يؤثر في قلوب وأذهان الملايين من الحفاظ .

٥- وإذا كان له من القدرة ما صار به طاغية زمانه ، وديكتاتور عصره بحيث لم يجرؤ مخلوق من أقصى العالم إلى أقصاه أن يرده عن تلاعبه في النص القرآني ، فكيف استطاع أن يدير طغيانه هذا ويستمر في ديكتاتوريته تلك من غرفة العمليات في قبره ، الذي رقد فيه رقدته ، وأصبح لا حول له ولا قوة ، كيف استطاع الحجاج إلى الآن أن يؤثر في قلوب وأذهان الناس ، فلم يجرؤ أحد بعد موته أن يعيد إلى القرآن ما محاه خل الحجاج المزعوم ؟

٦- إن هذا الزعم إن دل على شيء فإنما يدل على سفه في عقل من ينطق به ، قبل أن يدل على بلاهة من يصدق به .

الشبهة الثانية عشرة

زعم بعض الشيعة أن الصحابة في العهدين ، البكري والعثماني أسقطوا كثيرًا من سوره وآياته ، وبعض ألفاظ من آياته ، ومن هذه الأشياء التي يزعمون إسقاطها .

١- سورة كانت تسمى سورة الولاية ، حيث كان الأمر فيها للمسلمين بطاعة علي بعد النبي ﷺ .

٢- إسقاط آيات كثيرة من سورة الأحزاب كانت تتحدث عن فضائل أهل البيت .

٣- قالوا : إن القرآن الذي نزل من السماء كان عدد آياته سبعة عشر ألف آية ، ولكن الصحابة أنقصوه إلى ستة آلاف وكسور .

ومن الألفاظ التي يزعمون سقوطها :

١- لفظ « ويلك » من قبل قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [1] .

٢- لفظ « عن علي » من بعد قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [2] .

٣- لفظ « بعلي بن أبي طالب » من بعد قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [3] .

٤- لفظ « آل محمد » من بعد قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [4] .

ونرد على سخافة هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذا الحقد الظاهر لهؤلاء الغلاة المارقين ، للإسلام ، هو الذي جعلهم يفترون ذلك على الصحابة ، أطهر البشر على الإطلاق وأتقاهم ، فهم الذين ألزمهم الله كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، كما قال تعالى في سورة الفتح ، وإن دل بغض هؤلاء الغلاة للصحابة ، فإنما يدل على بغضهم لله الذين يزعمون الإيمان به ، ولرسوله ﷺ الذين يدعون محبته .

قال ﷺ « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضًا ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه » [5] .

وعن الصحابة يقول الإمام الشافعي : (هم فوقنا في كل علم . واجتهاد وورع ، وعقل ، وأمر استدرك به علم ، واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد ، وأولى بنا من رائنا ، عندنا لأنفسنا » [6] . وقال أبو زرعة الرازي : « إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من صحاب رسول الله ﷺ ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق . والقرآن

---

١) سورة التوبة : آية ٤٠

٢) سورة الصافات : آية ٢٤

٣) سورة الأحزاب : آية ٢٥

٤) سورة الشعراء : آية ٢٢٧

٥) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب (٥٨) .

٦) التقييد والإيضاح ، شرح مقدمة ابن الصلاح ن للحافظ العراقي ص ٣٠٥ .

حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة »[1] .

٢- أجمعت الأمة ، سلفها وخلفها على أن القرآن الذي جمعه الصحابة في الصحف في عهد أبي بكر ثم استنسخوا منها مصاحف إلى كل الأقطار ، هو كل كتاب الله الذي أنزل على رسول الله ﷺ من غير زيادة أو نقصان ، فهل يرد هذا الإجماع من أجل افتراءات ظالمة صدرت عن قلوب خبيثة ونوايا سيئة ؟

٣- قلنا أثناء الجمع البكري والعثماني أن عليًا بن أبي طالب حمد لكل منهما فعله ، حيث قال عن أبي بكر : « رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجرًا في المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين »[2] ، وقال عن جمع عثمان « لو لو يصنعه عثمان لصنعته »[3] .

فإذا كان علي نفسه يمدح فعل الخليفتين في المصحف ، فكيف يزعمون مناصرتهم له ، رغم إقراره جمعهما ، ومدحه لهما ، وكيف يقولون إنهم أسقطوا أشياء أقرهم علي عليها ؟ بل ومدحهم بإسقاطهم إياها .

٤- ومما يدل على كذبهم أيضًا أن علي بن أبي طالب دالت إليه الدولة بعد ذلك ، وتولى قيادة الأمة وزمام المسلمين ، وترك المصحف على ما هو عليه ، فلو كانت الصحابة أسقطت منه ما يزعمه أولئك الضالون ، فما الذي منع عليًا من إثبات ما أسقطوه ؟

٥- ومما يدل على اختلاقهم تلك الضلالات ، ما صرح به علماؤهم المنصفون ، من أن القرآن الذي بين أيدينا هو الذي نزل من السماء ، من غير زيادة أو نقصان . يقول الطبرسي أحد علماء الشيعة في مقدمة تفسيره (مجمع البيان) ما نصه : « فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه ، وأما النقصان منه فقد روي

(١) الكفاية في علم الرواية ، للخطيب البغدادي : ٩٧
(٢) المصاحف : ٥
(٣) المصاحف : ١٢

جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييرًا ونقصانًا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى، قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات، وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان، والحوادث الكبار، والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعي توافرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه لأن القرآن معجزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية» إلى أن قال: «ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء ...» إلى أن قال الطبرسي عن المرتضى: «وذكر أيضًا أن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه الآن»[1]. هاهم علماء الشيعة المنصفون يردون على بني مذهبهم الضالين المضلين، فما أقبح ما نطقوا به، وما أسخف من صدقه.

النوع الخامس من الشبهات:

وهذا النوع يدعي أصحابه أنه قد حدث حذف بعض ألفاظ من القرآن الكريم وأحل محلها ألفاظ أخرى.. والذين قالوا بهذا النوع - للأسف - قوم يدعون انتسابهم للإسلام، ويزعمون المحبة الصادقة لآل البيت، وما في قلوبهم مثقال ذرة منها. ومن الأمثلة على ما يزعمون: قولهم إن الصحابة كتبوا في سورة النحل: «أمة هي أربى من أمة»[2] بدلاً من (أئمة هي أزكى من أئمتكم).

ويكفي في رد هذا النوع:

ما رددنا به عليهم في الشبهة السابقة.

---

(١) مجمع البيان للطبرسي: ١/ ٣٠، ٣١، ط مكتبة الحياة.

(٢) سورة النحل آية: ٩٢

١- حيث لا دليل لهم على ذلك .

٢- وحيث أجمعت الأمة كلها سلفها وخلفها على أن ألفاظ هذه الآية ، وألفاظ كل آية من القرآن هي هي ، كما أنزلت من السماء .

٣- وحيث إن عليًا بن أبي طالب الذي يزعمون مناصرته ، والذي يزعمون أن الصحابة قد أسقطوا من القرآن ما يدل على طاعته قد أقر جمع الصحابة في العهدين البكري والعثماني ، بل ومدحه ، وتمنى -إن لم يكن قاموا به- أن يقوم به .

٤- وأن الأمر دال إليه بعد ذلك ، فما غير شيئًا مما كتبوه .

٥- وحيث تبرأ علماء الشيعة المنصفون ، من كل ما يقال ممن ينتسبون لمذهبهم ، عن زيادة القرآن ، أو نقصانه . .

(**وبعد**)

فإنه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الخاص عن جمع القرآن الكريم إلا أن نردد وكلنا فخر واعتزاز ، قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

وها هو القرآن يطل من عليائه ، ويتحدى كل كذاب اشر أن يأتي بمثل أقصر سورة منه ، أو أن يمحو آية واحدة منه ، ولقد صدق المستشرق الإنجليزي سير وليم ميور حينما قال :

« والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ، ظل اثني عشر قرنًا كاملاً ، بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »[2] .

---

(١) سورة الحجر : آية ٩

(٢) الصديق أبو بكر : لمحمد حسين هيكل ص ٣٢٣

(وختاما)

نسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصً لوجهه الكريم ، وأن يغفر لنا ما قد وقع فيه من القصور ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات أبي وأمي ، وكل أستاذ لـه فضل علي ، وأن ينفعني به ، ومن بلـغ ، وأن يجـزي علمـاء الإسـلام ، وأساتذتنا خـير الجزاء ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه عدد خلـق الله ورضـاء نفسـه ، وزنـة عرشـه ، ومـداد كلماته ، وعدد معلوماته كلما ذكر الله الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

الفقير إلى عطاء ربه ، والشاكر له توفيقه

د / جمال مصطفى

١٢ من أكتوبر ١٩٩٢م

كان من كتابته صباح يوم الاثنين ١٥ من ربيع الثاني ١٤١هـ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أهم المراجع

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن - السيوطي : ط المكتبة الثقافية بيروت .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود : ط محمد صبيح

٤- إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي : ط دار الكتاب العربي ببيروت .

٥- البداية والنهاية ، لابن كثير : ط دار المعارف ببيروت .

٦- البرهان للزركشي : ط دار التراث

٧- البيان في مباحث من علوم القرآن للدكتور / عبد الوهاب غزلان : ط دار التأليف .

٨- تاريخ القرآن ، د / عبد الصبور شاهين : ط دار القلم .

٩- التبيان في آداب حملة القرآن ، للنووي : طدار البيان بدمشق .

١٠- تدوين القرآن ، د / محمد القبيسي : ط دار الآفاق .

١١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ط دار الشعب

١٢- التفسير والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للحافظ العراقي : ط المكتبة السلفية .

١٣- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ط وزارة الثقافة .

١٤- جامع البيان لابن جرير الطبري : ط دار المعارف

١٥- جمال القراء للسخاوي : ط مكتبة التراث بمكة المكرمة .

١٦- الدر المنثور للسيوطي : ط دار المعرفة ببيروت .

١٧- روح المعاني للآلوسي : ط دار المنيرية

١٨- سنن ابن ماجه : ط دار الفكر العربي .

١٩- سنن أبي داود : ط دار الفكر العربي .

٢٠- سنن الترمذي : ط دار الكتب العلمية .

٢١- السنن الكبرى للبيهقي : ط دار أحياء الكتب العربية .

٢٢- صحيح البخاري : ط عيسى الحلبي .

٢٣- صحيح مسلم : ط دار إحياء الكتب العربية .

٢٤- الصديق أبو بكر ، لمحمد حسين هيكل : ط مكتبة النهضة المصرية .

٢٥- عملة القارئ شرح صحيح البخاري ، لبدر الدين العيني : ط مصطفى الحلبي .

٢٦- فتح الباري لابن حجر العسقلاني : ط الريان .

٢٧- فضائل القرآن لابن كثير : ط عيسى الحلبي .

٢٨- القاموس المحيط للفيروز آبادي : ط دار الجيل .

٢٩- الكشاف للزمخشري : لاط الريان .

٣٠- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي : ط دار الكتب الحديثة .

٣١- لسان العرب لابن منظور : ط دار المعارف .

٣٢- لطائف الإشارات للقسطلاني : ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣٣- مجمع البيان للطبرسي : ط مكتبة الحياة .

٣٤- المحرر الوجيز لابن عطية : ط المجاس الأعلى للشئون الإسلامية .

٣٥- المدخل لدراسة القرآن الكريم : د / محمد أبو شهبة .

٣٦- مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسيهر : ط دار اقرأ .

٣٧- المرشد الوجيز لأبي شامة : ط دار صادر .

٣٨- مستدرك الحاكم : ط دار المعرفة - بيروت .

٣٩- المستشرقون والقرآن الكريم : ليوسف لقمان الفلبيني .

٤٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل : ط بيروت .

٤١- المصاحف لأبي داود : ط المطبعة الرحمانية .

٤٢- مفاتيح الغيب للفخر الرازي : ط دار إحياء التراث العربي .

٤٣- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني : د دار المعرفة ببيروت .

٤٤- مقدمتان في علوم القرآن ، تحقيق آرثر جفري : ط الخانجي .

٤٥- المقنع لأبي عمرو الداني : ط الكليات الأزهرية .

٤٦- مناهل العرفان للزرقاني : ط المطبعة الفنية .

٤٧- المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي .

٤٨- منهج الفرقان في علوم القرآن للشيخ محمد علي سلامة : ط شبرا .

٤٩- موطأ مالك : ط الشعب

٥٠- النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز : ط السعادة

٥١- النشر في القراءات العشر لابن الزري : ط مصطفى محمد

٥٢- هدي الساري للحافظ بن حجر : ط الريان .

الفهرس

المقدمة ٥

الفصل الأول : معنى جمع القرآن ١١

– المراد بجمع القرآن ١١

الفصل الثاني : جمع الرسول (ﷺ) القرآن ١٩

– المبحث الأول : جمعه (ﷺ) حفظاً ٢١

– العوامل التي ساعدت رسول الله (ﷺ) على حفظ القرآن ٢٣

– المبحث الثاني : جمعه (ﷺ) كتابة ٢٩

– فيم كان يكتب القرآن في العهد النبوي ؟ ٣٣

– ما الدافع لكتابة القرآن في العهد النبوي ؟ ٣٣

– كيف كتب القرآن في العهد النبوي ؟ ٣٤

– سمات جمع القرآن في العهد النبوي ٣٦

– لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في عهد الرسول (ﷺ) ٣٨

الفصل الثالث : جمع الصحابة للقرآن حفظاً ٤٥

المبحث الأول : ٤٧

أ – تمهيد ٤٧

ب – الأسباب التي دعت الصحابة لحفظ القرآن عن ظهر قلب ٤٩

المبحث الثاني : ٥٧

أ – كثرة الحفاظ من الصحابة ٥٧

ب – شبهة سخيفة وبيان زيفها ٦١

الفصل الرابع : جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد البكري ٧٧
- جمع أبي بكر ٧٨
- كيف جمع زيد القرآن ؟ ٩٠
- دليل اعتمادهم على المصدرين معا ٩١
- مبالغة على مبالغة ٩١
- شبهة معكوسة ٩٣
- آخر التوبة ، وآية الأحزاب ٩٦
- سمات الجمع البكري ١٠٥
الفصل الخامس : جمع الصحابة للقرآن كتابة في العهد العثماني ١٠٩
- سبب الجمع ١٠٩
- سبب الاختلاف والتنازع ١١٠
- الصحابة يهتمون بالأمر ويقدرون خطورته ١١٢
- الخليفة يستشير ثم يصدر أمراً ١١٢
- فطنة عثمان وبعد نظره ١١٣
- عثمان يشرك الأمة كلها في جمع القرآن ١١٤
- انتقاء لجنة عظمى لكتابة المصاحف ١١٥
- من هم كتابة المصاحف العثمانية ؟ ١١٥
- الخليفة يضع خطة الكتابة ١١٦
- إشراف عثمان على كتابة المصاحف ١١٩
- ما الذي فعله عثمان ؟ ١٢٠
- عثمان يرسل المصاحف إلى الأقطار ١٢٢
- ما نميل إليه في عدد المصاحف العثمانية ١٢٤

- عثمان يحرق المصاحف الأخرى ١٢٥
- الأمة تحمد لعثمان فعله ١٢٥
- سمات الجمع العثماني ١٢٧
- مقارنة بين كل جمع وغيره في العهود الثلاثة ١٢٨
- اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة ١٣٢
- معنى الأحرف السبعة ١٣٣
- اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة ١٣٧
الفصل السادس : شبهات حول جمع القرآن الرد عليها ١٤٥
- النوع الأول من الشبهات :
شبهات تدعي أن القرآن كله أو بعضه غير متواتر ١٤٦
- النوع الثاني من الشبهات ١٤٩
- الشبهة الأولى ١٤٩
- الشبهة الثانية ١٥١
- النوع الثالث من الشبهات ١٥٤
- الشبهة الأولى ١٥٤
- الشبهة الثانية ١٥٥
- الشبهة الثالثة ١٥٦
- النوع الرابع من الشبهات ١٥٨
- الشبهة الأولى ١٥٨
- الشبهة الثانية ١٥٩
- الشبهة الثالثة ١٦٠
- الشبهة الرابعة ١٦١

- الشبهة الخامسة ١٦٣
- الشبهة السادسة ١٦٤
- الشبهة السابعة ١٦٥
- الشبهة الثامنة ١٦٧
- الشبهة التاسعة ١٧١
- الشبهة العاشرة ١٧٢
- الشبهة الحادية عشر ١٧٣
- الشبهة الثانية عشر ١٧٤
- **النوع الخامس من الشبهات ١٧٧**
- ختاماً ١٧٩
- أهم المراجع ١٨١
- الفهرس ١٨٥

